

قَدْ رَسَلَا قَدْ سَمِعَا

بشرح المهندس علاء حامد

تلخيصات قد سمع
المستوى الثاني

قَدْ رَسَلَا قَدْ سَأَمِعَا

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة العاشرة



الحمد لله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

أهلاً ومرحباً بكم في الجزء الثاني من دورة مدرسة قد سمع. تم بحمد الله الانتهاء من الجزء الأول ودراسة سور: المجادلة، الحشر، الممتحنة، والصف. في هذا الجزء سيتم تدارس بقية السور: الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم.

من ثمرات الفهم والتدبر:

ثبات الحفظ وعدم النسيان
جمال أثر السورة في القلب
لذة الصلاة بالآيات.

ولا بد من تجديد النوايا: بطلب العلم، وتدارس القرآن، وحضور مجلس تحف الملائكة، والعمل بما نتعلم، وإشغال أوقاتنا بطاعة الله.

التعريف بسورة الجمعة:

سورة الجمعة سورة مدنية بلا خلاف، تناولت الحديث عن اليهود، وبيّنت شأن صلاة الجمعة وأهميتها، وتركّز على أهمية العمل والتحذير من تركه. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها أحياناً في صلاة الجمعة؛ فيقرأها في الركعة الأولى ويقرأ سورة المنافقون في الركعة الثانية، وهي سنة مهجورة. وكذلك القراءة بسورة الأعلى والغاشية ثابتة وصحيحة أيضاً. فحريّ بنا إحياء هذه السنن ونشرها. محاور السورة:

- 1) الاصطفاء: السورة تدور حول معنى الاصطفاء، وبيان من يصطفيه الله والأسباب.
- 2) اصطفاء الأمة المحمدية: يتجلّى في بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في الأميين (العرب)، وبيان فضل هذه الأمة واختيارها.
- 3) إخراج اليهود من الاصطفاء: لعدم استجابتهم لأوامر الله.
- 4) اصطفاء الزمان والعبادة: يظهر في اصطفاء يوم الجمعة وصلاة الجمعة.
- 5) تفضيل الآخرة على الدنيا: تأكيد أن ما عند الله خير من اللهو والتجارة، وأن الرزق بيد الله وحده.

ارتباط السورة بسورة الصف:

فسورة الصف تدعو إلى الإستجابة، وسورة الجمعة تؤكد أن الاصطفاء يكون بقدر هذه الإستجابة.

(الآية 1)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

- وجاء التسبيح هنا بصيغة المضارع

- بينما جاءت في مواضع أخرى بصيغة الماضي: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾

- وجاءت في سورة الأعلى بصيغة الأمر: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾

وكان المراد أن يجتمع التسبيح لله في الماضي، والحاضر، والمستقبل.

معنى التسبيح:

التسبيح: هو تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب؛ لا نقص في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في شرعه، ولا في كلامه، وله الأسماء الحسنى، وتنزيهه عز وجل عن الشريك والولد والنظير.

يحب الله التسبيح لأنه اعتراف بكماله المطلق.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

[الإسراء: 44]

الانسجام مع الكون بالطاعة عندما تطيع الله وتستجيب لأمره، فإنك تسير في الطريق الفطري الذي تسير عليه كل المخلوقات؛ فقد يبدو الملتزم غريباً بين الناس، لكنه في الحقيقة منسجم مع الكون كله، فالسماوات والأرض وسائر المخلوقات تطيع الله وتسبحه، ولذلك تحب الصالحين وتفرح بهم، حتى إن السماوات والأرض تبكيان على المؤمن إذا مات، بخلاف الفاجر الذي قال الله تعالى فيه:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾

[الدخان: ٢٩]

تسبيح الجمادات ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم

قال عليه الصلاة والسلام:

«إني لأعلم حجراً بمكة كان يسلم عليّ»

• وكان الصحابة يسمعون تسبيح الحصى في يده الشريفة.

• وبكى جذع النخلة حين فارقته

• واهتز جبل أحد تحته،

قال عنه صلى الله عليه وسلم:

«جبل أحد جبل يحبنا ونحبه»

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ما تستقل الشمس بشيء إلا وهو يسبح بحمد الله تعالى، إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم».

التسبيح والطبيعة الإنسانية

كل شيء يسبح بحمد الله، إلا ما كان من الشياطين والعصاة والكفار من البشر، وهم مخالفون للطبيعة الصحيحة.

كن ملتزماً ولا تحاول تقليد من خالف الحق.

قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[الملك: ٢٢]

الإلتزام يضعك على الصراط المستقيم ويمنحك الطمأنينة والفرح والثبات في الدين.

أسماء الله وصفاته تعزز سلوك المسلم الملتزم.

﴿الْمَلِكِ﴾ يملك كل شيء، ومن يخدمه في طاعته يشعر بالأمان والطمأنينة.

المؤمن لا يقلق من فقدان الرزق أو الأذى بسبب حرصه على الحلال،

قال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]

﴿وَإِذَا رَأَوْا تَجْرَةً أَوْ وَجْعًا فَلَهَا أَنفِضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ التَّجَرَّةِ وَاللَّهِ

خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]

﴿الْقُدُّوسِ﴾ منزّه عن كل عيب ونقص، فأوامره عدل وأحكامه صادقة، والمشي في مراده يضمن

صحة الأعمال رغم عدم فهم الحكمة أحياناً.

﴿الْعَزِيزِ﴾ لا يغالب، يملك القوة والسلطان، يحفظ المؤمن من الأعداء والأذى، ويؤمن له الرزق

والزواج وكل الخير.

﴿الْحَكِيمِ﴾ يضع كل شيء في موضعه الصحيح، لا يخطئ في القول أو الفعل، وعزته لا تؤثر على

حكيمته، وحكيمته لا تؤثر على عزه، فهو العزيز الحكيم.

الحكمة: هي الإصابة في القول والعمل.

الشرف بعبودية الله، فأشرف لقب للإنسان هو عبد الله، وقد كَرَّمَ الله أنبياءه بهذا اللقب قال تعالى:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]

وقال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾
[الكهف: ١]

عباد الرحمن هم صفوة أمة الله.

الاصطفاء مرتبط بالاستجابة، وقد فشل اليهود في الاصطفاء لعدم استجابتهم، بينما هذه الأمة تميزت بسرعة الإستجابة فاستحقت الاصطفاء.

سورة الصف: تأمر بالاستجابة

سورة الجمعة: استعد للاصطفاء بحسب استجابتك

(الآية 2)

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾
الأمي هو من لا يقرأ ولا يكتب.

الأميين: نسبة إلى الأم، أي كما ولدته أمه لا يقرأ ولا يكتب، وهم العرب.

بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم في العرب، والأمي لا يعني الجهل، فهذه الأمة كانت تحفظ العلم كالأنساب والأشعار واللغة عن طريق الفهم والحفظ في الصدور، ويعتمدون على الذاكرة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم منهم، لذلك سُمِّي "الرسول الأمي".

اعتماد الأمة على الحفظ في الصدور قد حافظ على القرآن والدين من التحريف، لذلك كان حفظ العلم في الصدور أكثر قوة وأماناً من مجرد الاعتماد على الكتب المكتوبة.

أمية النبي صلى الله عليه وسلم:

أمية النبي صلى الله عليه وسلم لا تعني الجهل، بل كانت ميزة عظيمة فيه؛ لأنها نفت عنه شبهة كان يمكن أن تؤثر على تصديق الناس له؛ فلو كان يقرأ ويكتب لقال الناس: ربما أخذ هذه العلوم من كتب السابقين.

وقد بين الله هذا في سورة العنكبوت:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩]

فأميته صلى الله عليه وسلم كانت حمايةً من اتهام المبطلين بأنه أخذ كلامه من كتب السابقين. أرسله الله في الأمة العربية ليظهر فضل الله عليهم.

وقد أرسل لجميع الناس

• بدليل قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]

وكما جاء في الحديث النبوي:

«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا كان من أهل النار».

• وبدليل فعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي يوضح شمولية الرسالة، فقام بإرسال رسائل للفرس والروم، وهياً للفتح، فالرسالة لم تقتصر على جزيرة العرب.

فضل الأمة العربية والاصطفاء

اصطفى الله عز وجل الأمة العربية بأن بعث النبي صلى الله عليه وسلم منهم، واصطفى العرب دون جميع الأجناس، واصطفى من العرب قريشاً، ومن قريش بني هاشم، واصطفاه عليه الصلاة والسلام من بني هاشم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه، ثم نظر في قلوب أصحابه فوجدهم خير قلوب بعده، فجعلهم وزراء وأنصاراً وأصحاباً.

رغم فضل العرب كأمة، فإن الأفضلية في الآخرة ليست للجنس، بل للتقوى.
قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم تلاوة وتعليم وتزكية الأمة، وهي وظيفة كل داعية بعده فقد كان يقرأ عليهم آيات الله، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم.

التزكية تشمل أمرين:

معنى التزكية: زكى الشيء أي نما. فيقال: الزكاة تعني الطهارة.

- 1) التطهير: "التخلية" إزالة الرذائل والعيوب والأخلاق السيئة والشرك والكبائر والبدع.
 - 2) النماء: "التحلية" تنمية النفس بالتوحيد والأعمال الصالحة والفضائل من واجبات وسنن. وهو الهدف من تلاوة الآيات، ونية يُتَعَبَدُ بها.
- لكي تتحقق النية في الاستفادة من القرآن، يجب أن تتعلمه وتفهم تفسيره، ثم تدبره بدراسته، وتطبق ما تعلمته، فتتحقق التزكية والنمو الروحي.
- ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يحتمل قولين:

القول الأول:

فالمقصود فهم القرآن والتفقه فيه

• الكتاب: القرآن.

• الحكمة، وفيها معنيان:

السنة، وغالبًا الحكمة لما تقترن بالقرآن يكون المقصود بها هو السنة. فهم القرآن.

ولا تعارض بين القولين

القول الثاني:

• الكتاب: الكتابة، لأن القرآن بعث في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، فأراد الله أن يمتن عليهم بتعليم الكتابة لتوثيق الوحي ولضمان استمرار الدين عبر الزمن.

• الحكمة: الاستقامة في القول والعمل، أي تطبيق ما كُتِبَ وتدبره بما يحقق الاستقامة العملية. والقولان متكاملان لا يتعارضان.

حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم الصحابة القراءة والكتابة، ويتجلى ذلك في أسرى بدر؛ إذ اشترط النبي صلى الله عليه وسلم على من لا يملك الفداء منهم أن يعلم عشرة من الصحابة القراءة والكتابة مقابل إطلاق سراحه، لتوثيق الوحي بعد حفظه في الصدور حمايةً له من التحريف.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

العرب كانوا على ملة إبراهيم، لكنهم حرفوا أحكام التوحيد وأشركوا، وكانت الأقوام الأخرى في ضلال.

ففي الحديث الشريف:

«أن الله نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم جميعًا إلا غُبِّرَ من أهل الكتاب»

(الآية 3)

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الأميين (العرب) وإلى آخرين منهم.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ﴾

الواو واو عطف، وفيها قولان:

- معطوف على "الأميين"، وفيه دليل على شمولية الرسالة.

- معطوف على "يعلمهم"، أي أن الرسالة كانت لتعليم الأميين وغيرهم على حد سواء.

ولا تعارض بين القولين.

شمولية الرسالة وعالميتها وأنها تشمل جميع الناس، وغير مقتصرة على العرب فقط.

﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾

تفسيران شائعان:

التفسير الأول:

المقصود هم الذين لم يشاركو الصحابة في الصحبة المباشرة ولا في فضلها الخاص.

فالأمم الأخرى كالروم والفرس لم يدركوا العرب في هذا الفضل؛ لأن العرب اختصوا ببعثة النبي

صلى الله عليه وسلم فيهم أولاً، ولأن الصحابة نالوا شرف صحبته.

قال صلى الله عليه وسلم:

«لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»

التفسير الثاني:

لم يلحقوا بهم زمناً، أي جميع الأجيال بعد الصحابة.

وعلى هذا فإن من جاء بعد الصحابة لا يمكنه أن يبلغ درجتهم، في الفضل أو في الزمن، فللصحابة

منزلة لا يدركها من بعدهم.

(الآية 4)

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

يظهر فضل الله وحكمته في اختيار من يشاء من عباده للنبوّة والهداية.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾

التفسير الأول: يشير إلى فضل النبوّة ومنحه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

التفسير الثاني: فضل الله على الأمة ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وجعلها أفضل الأمم بذلك.

التفسير الثالث: فضل الله على العرب من حيث كونهم جنسًا مفضلًا على العجم وغيرهم.
التفسير الرابع: فضل الله على غير العرب أن شملهم برسالة الإسلام، ثم إنه جعل التفاضل يوم القيامة بالتقوى لا بالجنس، كما قال صلى الله عليه وسلم:
«لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»
﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

هذا الفضل من الله وحده، وهو ذو الفضل العظيم.
يُشرع للمؤمن أن يطلب من فضل الله بلا حدود، كما دعا سيدنا سليمان عليه السلام:
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]
متى يُؤتى فضل الله وعلى أي أساس؟

فضل الله الحقيقي هو الفضل الأعلى: الهداية والاستقامة وحسن الخاتمة ودرجات الجنة، وهو مرتبط بما عند الله، الذي هو خير من اللهو والتجارة. أمّا مفاضلة الدنيا فظاهريّة زائلة وليست الفوز العظيم. والتنافس الحق إنما يكون على العمل الصالح، والتوحيد، والتوفيق، والهداية، والإعانة، والسداد، ورفعة الدرجات في الجنة.

وهذا الفضل لا يُنال إلا بالعمل

هذه المزايا لا تُنال إلا بالعمل، فلو أردت الفضل فانصر الله، كما دلّت سورة الجمعة بعد سورة الصف:

﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]

فمن أراد الفضل والدرجات والمكانة فطريقها العمل. واحذر أن تكون كاليهود الذين طلبوا المكانة بغير عمل، فلن تُنال منزلة بنسبٍ أو تاريخٍ سابق، وقد أضاعوا تاريخهم بأعمالهم، فالجيل الجديد لا يستحق شيئًا بسبب ما فعله أسلافهم.

(الآية 5)

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾
التحذير من الذين لم يعملوا بما علموا.
﴿حُمِّلُوا التَّوْرَةَ﴾

أي كلفوا بها وأمرهم الله العمل بها، والالتزام بما فيها من أحكام وهداية، وأداء حقها والدعوة لها.
كما في قوله تعالى:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣]

وليس مجرد الحفظ بلا فهم أو تطبيق، وقد ذم الله الذين يحفظون الكتاب دون عمل أو فهم وتدبر:
﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾

أي لم يفهموها ولم يطبقوها، بل حرفوها وضيعوها
فهم في الحقيقة لم يحملوها.

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

ضُرب المثل بالحمار لأنه من أردأ الحيوانات في نظر الناس، وهو يحمل الكتب ولا ينتفع بها.
الأسفار: الكتب العظيمة، وسُميت أسفارًا لأنها تُسفر عما فيها، أي تُظهره.
ومنه سُميت المرأة التي تظهر زينتها سافرة.

الحمار أفضل من الإنسان الذي أوتي العلم ولم يعمل به، لأنه غير مكلف، أما الإنسان فقد أعطي العقل وحُمِّل التكليف، وأولئك الذين فهموا العلم ولم يعملوا به أسوأ من الحمار، لأنهم بدلوا وحرّفوا ما حملوه.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. [الفرقان: ٤٤]
ضرب الله في القرآن أقسى مثلين لمن لا يعملون بعلمهم:

المثل الأول: الحمار

وقد شبه به اليهود في عدم العمل. في سورة الجمعة.

المثل الثاني: الكلب في سورة الأعراف، قال تعالى:

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ -

[١٧٦]

العلم بلا عمل لا قيمة له، وحمل الرسالة يعني فهمها والعمل بها، لا مجرد الحفظ.

التحذير لأهل العلم والحفظ، من أوتي العلم ولم يعمل به، فلا يفخر بكثرته. سواء كنت ختمت القرآن، أو حصلت على إجازة في الحديث أو كتب السنة، لقد حُمِلتم الوحي فهل حملتموه حقًا؟ أم كاليهود، نحفظ العلم لكن أعمالنا تخالفه؟

أمثلة عملية لتطبيق العلم:

- أداء الصلاة، والصيام والقيام.
- الالتزام بأحكام الإسلام.
- غض البصر وارتداء الحجاب.
- تجنب المحرمات كالكذب والحسد والغش، والكبر.
- العمل بالتوحيد والابتعاد عن البدع.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: "يا قوم اعملوا بعلمكم قبل أن يأتي قوم يعلمون ولا يعملون ويخالف عملهم علمهم"

إذا أردت الاصطفاء، فعليك بالعلم، وحمل الرسالة كما ينبغي.

﴿يَسْئَلُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

أظهر الله صفة الظلم لبيان سبب عدم هدايتهم، لأنهم ظلموا أنفسهم واستمروا في ظلمها. الهداية مرتبطة بحكمة الله وعدله، فلا توضع فيمن لا يستحقها، كما لا تزرع البذرة في أرض بور، بل في أرض طيبة.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

وقال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧]

وبين سبحانه سبب حالهم بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ۖ يَقَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]

(الآية 6)

﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

كانت مشكلتهم أنهم أرادوا الفضل بلا عمل، كما يفعل بعض الناس اليوم؛ يتوهم بالمكانة بسبب المظاهر:

فيظن أنه يستحق المراتب والفضل لمجرد المظاهر، كالشيخ بلحية أو المرأة بالحجاب أو النقاب، رغم تركهم الفرائض والطاعات مثل قيام الليل، صلاة الفجر، أو ورد القرآن، معتقدين أن الأمر قد اكتم

وهذا خطأ؛ فالدين يُؤخذ كاملاً، كما قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾
[البقرة: ٢٠٨]

فالحياة سنة مؤكدة، والنقاب من شعائر الإسلام، لكن الدين منظومة كاملة، لا يُؤخذ بعضه ويُترك بعضه.

﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

وتمني الموت المقصود به المباهلة أي أن يدعو كل طرف على الكاذب أن يهلكه الله.
كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥، ٩٤]
وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران إلى المباهلة فرفضوا، ثم أسلموا بعد ذلك، أما اليهود فرفضوا المباهلة ولم يؤمنوا.

(الآية 7)

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

ولهذا فهم لا يتمنون الموت أبداً، لأن أعمالهم سيئة، ومن كان عمله سيئاً خاف الموت.
قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولو أن النصارى باهلوا لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً».

من يكره سماع ذكر الموت، فهو في الغالب غير مستعد له. فكلما ساء العمل، زاد الهروب من ذكر الموت.

(الآية 8)

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وقال عليه الصلاة والسلام:

«لو أن أحدكم فرّ من الموت لأدركه الموت كما يدركه الرزق».

الوصية بالاستعداد للموت
كان بن عمر رضي الله عنهما يقول :
«إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحبتك لمرضك».
وكانوا يقولون عن حماد بن سلمة: لو قيل له إن القيامة غدًا ما زاد شيئًا في عمله.

فالوصية:

اعمل كل يوم عمل مودّع، وصلّ صلاة مودّع، وتكلم كلام مودّع، وصم صيام مودّع.
وذكر الموت لا يُعجله، ونسيانه لا يؤخره، بل هو أنفع ما يكون للقلب.

حتمية الموت ووقته المعلوم
الموت رزق كسائر الأرزاق، سيأتيك كما يأتيك رزقك.

قال الله تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]
لا تحزن ممن يذكرك بالموت؛ فهو يؤدي واجبه. والواجب عليك أن تهني نفسك له بسماع ما يذكرك بالموت، ومجالسة من يذكرون بالقبر والحساب، دون ملل، بل بالمبادرة إلى هذا الحديث.
ذكر الموت لا يُعجل الأجل قال تعالى لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم:
﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]

أثر ذكر الموت في حياة القلب

ذكر الموت يوقظ القلب ويبعث على العمل والاجتهاد، أما الغفلة عنه فهي بداية الضياع وقسوة القلب.

قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦]
فكانت العاقبة:

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾
﴿ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

الهروب من الموت لا يمنعه، الموت آتٍ في موعده، ثم سيقف الإنسان للحساب دفعة واحدة على كل شيء.

استعداد الصحابة رضوان الله عليهم للموت

يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه واصفًا الصحابة: «يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة». ولما حضر الموت معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «مرحبًا بالموت، مرحبًا، زائرًا مغيبًا، حبيبًا جاء على فاقة.

اللهم إنك تعلم أنني ما كنت أحب الحياة من أجل غرس الأشجار ولا جري الأنهار، ولكن كنت أحبها من أجل ظمأ الهواجر، وقيام الليالي الطويلة، ومزاحمة العلماء بالركب في حلق العلم». ولما حضرت الوفاة سيدنا بلال رضي الله عنه، بكت أخته، فقال لها: «ما يبكيك؟ غدا ألقى الأحبة، محمدًا وحزبه».

الخوف من الموت سببه عدم الاستعداد له؛ فاستعد.

المحور الأخير من السورة الحديث عن صلاة الجمعة ويومها، ضمن سياق بيان التفضيل الإلهي* كما فضّل الله أمته والنبي صلى الله عليه وسلم، فضّل أيامًا وأحوالًا بحكمته، فجعل يوم الجمعة أفضل الأيام وصلاة الجمعة أفضل الصلوات، وميّزها بأحكام خاصة.

الاصطفاء يتطلب العمل؛ فكما فضّل الله يوم الجمعة، يمكن أن يفضّلك على غيرك، فاعمل واجتهد.

(الآية 9)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ذكرت الجمعة في القرآن بالضم. وتقال بالفتح والسكون أيضا.

ذكر الله يوم الجمعة لأنه يوم التفضيل، وسُميت السورة باسمه: فسُمي يوم الجمعة من الجمع، واختلف العلماء في أي جمع هو:

قيل: لأن الناس يجتمعون فيه لصلاة الجمعة.

وقيل: لأن الله جمع فيه خلق آدم.

وقيل: لاجتماع خلق السماوات والأرض فيه.

فضل يوم الجمعة

جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تُيب عليه، وفيه قُبض، وفيه تقوم الساعة».

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مُصيخة حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا ابن آدم، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه». ومعنى مُصيخة: أي مستمعة؛ فالحيوانات خائفة لعلمها أن الساعة تقوم في يوم جمعة، إلا بني آدم، الذي يعيش في غفلة.

سبب تسمية الجمعة

قيل لأن فيه اجتمع خلق السماوات والأرض؛ فخلق الله عز وجل الخلق في ستة أيام بدأ من يوم الأحد واكتمل الخلق الجمعة.

وقيل أيضًا: لأنه اليوم الذي تقوم فيه الساعة، وسُمِّي يوم القيامة يوم الجمع. قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩]

فضل الدعاء يوم الجمعة ويوم المزيد

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

«عرضت الجمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء بها جبريل عليه الصلاة والسلام في كفه كالمرآة البيضاء، في وسطها كالنكتة السوداء فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك، ولكم فيها خير تكون أنت أول، وتكون اليهود والنصارى من بعدك، وفيها ساعة لا يدعو أحد ربه فيها بخير هو له قُسم إلا أعطاه، أو يتعوذ من شر إلا دفع عنه ما هو أعظم منه، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد.»

في الجمعة عيد للأمة

يوم الجمعة هو اليوم المعظم عند الله، ليس السبت ولا الأحد. السبت لم يكن فيه خلق، والأحد هو بداية الخلق، أما الجمعة فهي اليوم الذي اكتمل فيه الخلق وخلق الله فيه آدم. وقد كان يوم الجمعة معروضاً على الأمم السابقة من اليهود والنصارى، لكنهم اختلفوا فيه وغيروه: فجعل النصارى الأحد

يومهم، واليهود جعلوه السبت. أما الله فهدى أمتنا لهذا اليوم، فجعل الجمعة يومًا مباركًا وموصوفًا بالتفضيل الإلهي، كما ذكر في كتابه:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
[البقرة: ٢١٣]

قال النبي صلى الله عليه وسلم :

نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيِّدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ، قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى.

وفي لفظ مسلم:

«أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمَ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُقْضَى بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ».

لأننا أول أمة تدخل الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾
مِيزَ اللَّهُ الصَّلَاةَ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا النَّاسُ، وَهِيَ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ.
﴿إِذَا نُودِيَ﴾

المقصود هو النداء الذي يكون بعد الخطبة.

كان الأذان واحدًا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الخطبة، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم أضاف عثمان رضي الله عنه الأذان الأول يوم الجمعة؛ لأن المدينة اتسعت، فكان لتنبيه الناس البعيدين ليستعدوا ويحضرُوا، فانتشر العمل به في كثير من المساجد منذ ذلك الوقت.

﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

ذِكْرٍ: أي خطبة الجمعة.

ربط السعي بالذكر مباشرة.

يجب على الإنسان أن يُسرع في إدراك الخطبة وصلاة الجمعة.
■ وسمي الله الخطبة ذكرًا، لأنها تشتمل على ذكر الله.

﴿فَاسْعَوْا﴾

لها ثلاثة احتمالات في اللغة:
الاحتمال الأول:

السعي بمعنى المشي السريع
كما في قوله تعالى:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ آلِمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]

أي يجري.

لكن لا يجوز حمل الآية على الجري أو الهرولة أو الإسراع المنهي عنه؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك صراحة، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

وفي حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال:

«بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

الاحتمال الثاني: السعي بمعنى القصد والاهتمام كما قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الاسراء: ١٩]

أي قصدها واهتم بها.

الاحتمال الثالث: السعي بمعنى العمل

كما قال تعالى:

﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]

المراد من السعي في الآية: انتبهوا، واقصدوا صلاة الجمعة بقلوبكم وجوارحكم، وابدؤوا بالاستعداد لها بجملتها من الأعمال، منها:

التنظيف، والاغتسال، ولبس أحسن الثياب، والتطيب، والتدهن.

فصلاة الجمعة لها خصوصية واستعداد خاص بمكانتها.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾

جاء الأمر صريحاً للتأكيد على تقديم العبادة والذكر على شواغل الدنيا، تعظيماً لها. أحكام خاصة بصلاة الجمعة

- يجوز البيع والشراء بعد الأذان الأول ولا حرج في ذلك.
- يحرم البيع والشراء بعد الأذان الثاني، وهو الأذان الذي يكون بعده مباشرة الخطبة.
- كل عقد يُبرم بعد الأذان الثاني لا يجوز كالإجارة وعقد النكاح.
- لا تجب الجمعة على المرأة والمسافر، فيجوز لهما البيع والشراء.
- الرجل المقيم الصحيح، الذي لا عذر له يمنعه من حضور الجمعة، لا يجوز له البيع ولا الشراء بعد الأذان الثاني، ويكون ذلك حراماً عليه.
- كل بيع وشراء يتم بعد الأذان الثاني هو بيع محرّم، ولو كان صاحبه ينوي الصلاة بعد ذلك، لأن التحريم يبدأ من وقت الأذان لا من إقامة الصلاة.

يجوز للمرأة أن تشتري وتبيع لامرأة مثلها بعد الأذان الثاني ولا حرج في ذلك.

حكم شراء المرأة من رجل تلزمه الجمعة

لا يجوز للمرأة أن تشتري من رجل تجب عليه صلاة الجمعة بعد الأذان الثاني، لأن ذلك يعينه على ترك الصلاة والانشغال بالبيع، وهو سبب في الإثم. والمرأة بذلك آثمة لأنها تعلم حرمة هذا البيع.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

الثقة بالله الرزاق؛ أن ما تتركه طاعةً له لا يكون خسارة، بل خيراً وبركة في الرزق والعاقبة. فترك البيع المحرّم، أو تفويت أمر دنيوي كزواج من أجل طاعة الله، هو خير مما ناله بمعصية، فالصلاة سبب للرزق لا مانعاً له.

قال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢]

ترك الطاعة لا يجلب رزقاً، والرزق لا يكون بالحرام.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

من طلب الرزق بمعصية الله لن يزيده إلا ما كتبه الله مسبقاً، بل سيخسر الأجر، أما بالحلال فيأخذ رزقه ويكسب الأجر.

• التحذير من التنازل عن الدين لأجل الدنيا:

لا تفرّطي في دينك من أجل مال أو وظيفة، فالحرام لا يزيد رزقاً بل يضيّع الدين والآخرة، وطاعة الله خير من كل مكسب دنيوي.

(الآية 10)

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
المقصود بفضل الله هو التجارة وطلب الرزق الحلال. وقد أذن الله بالانتشار بعد الصلاة للبيع والشراء. والبيع الحلال واتباع الطريقة الشرعية فضل من الله، أما البيع بالحرام فلا خير فيه ولا بركة، كالغش الذي ينقص البركة ولا يزيد الرزق.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

لأن الأسواق مظنة الانشغال والغفلة وكثرة اللغو، أكد الله على الإكثار من ذكره أثناء البيع والشراء. العبادة وذكر الله في وقت الغفلة لها أجر عظيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة.

ويقاس عليه الصيام في شعبان لأنه شهر يغفل عن صيامه الناس.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ربط الفلاح بكثرة الذكر.

أحاديث في فضل صلاة الجمعة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر".

كلما كان الذهاب أبكر كان الأجر أعظم.

• الساعات المقصودة: ليست ساعات زمنية محددة، بل أقسام من وقت الصباح إلى خروج الإمام.

• وعند خروج الإمام تستمع الملائكة للذكر، ويكتب الأجر العظيم للمحافظين على الحضور.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«من غسل يوم الجمعة واغتسل، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة عمل سنة، أجر صيامها وقيامها».

كل خطوة نحو صلاة الجمعة تحسب له أجر سنة كاملة صيامها وقيامها.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها، ويبعث يوم الجمعة زهراء منيرة، أهلها يحفون بها كالعروس تُهدى إلى كريمها، تضيء لهم، يمشون في ضوئها، ألوانهم كالثلج بياضاً، وريحهم تفوح كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظر إليهم الثقلان، لا يطرقون تعجباً، حتى يدخلوا الجنة، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون». وقد صححه الإمام الألباني رحمه الله.

حكم حضور المرأة صلاة الجمعة:
حضور المرأة المسجد له أجر وفضل، وقد يكون بغرض الموعظة أو مصلحة، لكن الأصل أن صلاة المرأة في بيتها أفضل دائماً
لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وبيوتهن خير لهن».

(الآية 11)

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

سبب نزول الآية:

حدث أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا حاضرين صلاة الجمعة مع النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل رجل غير مسلم (دحية بن خليفة) بالمدينة ومعه تجارة، وضرب الطبول لإعلان وصول بضاعته.

انفضّ بعض الصحابة عن الخطبة، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائماً على المنبر، وبقي معه اثنا عشر صحابياً فقط.

معنى اللهو وحكم المعازف

التجارة المقصودة هي تجارة دحية بن خليفة، وأما اللهو فهو الطبل الذي أعلنه. وجود الطبل فيه قولين:

القول الأول: قبل تحريم المعازف.

القول الثاني: لأن التاجر كان كافراً.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف».

وصف الله الطبل باللَّهو إما لأنه محرم، أو تمهيدًا لتحريم كل ما يليه عن الطاعات.

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْهَوٍ وَتَجَرَّةٍ وَآلِهِ خَيْرٌ لِّلرَّزْقِينَ﴾

أي: ما عند الله من أجر وصلاة الجمعة وما فيها من فضل خير من كل انشغال بالدنيا، وكل تجارة أو لهو.

وقيل إن الله المقصود يشمل أي انشغال عن طاعة الله.
ويقاس على ذلك في يومنا:

من يترك الصلاة من أجل الدراسة، أو العمل، السفر، أو الزواج وأي مشاغل أخرى، فقد خسر وفاته أضعاف ما ظن أنه كسبه.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

بشارة بأن الله هو خير من يرزق، ويعطي أفضل مما نتخيله.

الرزق ليس فقط مالاً، بل يشمل: علماً، هداية، حسن استعمال، دعاء مستجاب، فتح القلوب، تيسير طلب العلم، الزوج الصالح، الولد الطيب، راحة بال، سكينه، حسن خاتمة، وجنة.

من حُرِمَ مالاً فقد يُعطى رزقاً أعظم وأبقى.

دعاء عِرَاك بن مالك رضي الله عنه

كان يقول بعد صلاة الجمعة:

«اللهم إني أجبته دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين».

بعد الصلاة والعبادة، توكل على الله في رزقك الحلال، فهو خير الرازقين. نسأل الله قبول الأعمال والتوفيق لطاعته.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

قَدْ رَسَلَا قَدْ سَمِعَا

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة الحادية عشر

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

أهلاً ومرحباً بكم أيها الكرام في لقاءٍ جديد من دورة مدرسة **قد سمع**.
فلنستحضر نيةً صادقة نُخلص فيها لله، وننوي الهداية والعمل بالقرآن؛ فإنما الأعمال بالنيات، وبحسب النية يكون الأجر والهداية والتغيير.

التعريف العام بالسورة

سورة **المنافقون** سورة مدنية باتفاق العلماء، وقد عالجت ظاهرة النفاق التي ظهرت في المدينة المنورة، وتطرقت إلى بعض الوقائع التي حدثت في غزوة **بني المصطلق**، كما كشفت مواقف **عبد الله بن أبي بن سلول** زعيم المنافقين.

محور السورة

- (1) صفات المنافقين وأحوالهم، وبيان خطرهم، والتحذير من مكرهم، وكيفية التعرّف على علاماتهم والتعامل معهم.
- (2) طريق النجاة من النفاق وبيان وسائل السلامة

(الآية 1)

{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }

أسلوب الشرط يدل على التكرار، أي أن هذا القول كان يتردد على ألسنة المنافقين كلما حضروا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم.

سرّ التكرار وعلامة الريبة

إن الإلحاح وكثرة الدفاع عن النفس دون اتهام من علامات الشك والريبة، وهو ما يُعدّ سمة بارزة من سمات النفاق.

فالإنسان المرتاب يوشك أن يفضح نفسه بنفسه دون أن يُسأل أو يُتَّهم.

كما قال إخوة يوسف:

{ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبَابُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا

صَادِقِينَ } [يوسف: ١٧]

الميزان الحقيقي: العمل أظهر صدقك بأفعالك، فليس كل متحدث بالدين متدينًا، ولا كل من ينشر فضائل يعيشها، فالعبرة بما يُفعل لا بما يُقال ولا تشهد لنفسك بل دع الناس يشهدون لك.

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾

يقولون ذلك بالسنتهم، لكن الله يعلم كذبهم، ويعلم أنهم في الباطن مكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم، رافضون لرسالته.

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }

وهذا ما يُسمّى في البلاغة بـ "الاحتراز"؛ أي دفع توهم معنى باطل.

فلو قيل فقط: { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }، لظنّ بعض الناس أنهم كاذبون في أصل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

فجاء الاحتراز لبيان أن الكذب ليس في الرسالة، بل في ادعائهم الإيمان بها. فالرسالة حق، والنبي صلى الله عليه وسلم رسول الله يقينًا، وهم كاذبون في زعمهم أنهم يؤمنون بذلك.

(الآية 2)

{ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

أي كثرة الحلف وقايةً وحمايةً لأنفسهم.

هم يحلفون بالإيمان والصدق، فيُعاملون كالمؤمنين ويعصمون دماءهم وأموالهم ويشاركون في الغزوات وينالون الغنائم.

خطورة الحلف الكاذب وعقوبته

جاء في الحديث القدسي:

قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره.

من يحلف كذبًا على الإيمان ويخدع المؤمنين، فجزاؤه الدرك الأسفل من النار.

الحلف بالكذب أعظم من الكذب نفسه، فلا تتوصل إلى الحرام باليمين.

قال تعالى:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [المجادلة: ١٤-١٥]

فاليمين الغموس من أكبر الكبائر كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم، وسُميت يميناً لأن العرب كانوا إذا تحالفوا أخذ أحدهم يمين صاحبه.

صفات المنافق في الأيمان:

- الكذب في الحلف.
- كثرة الحلف، فاحذر أن تكون منافقاً.

فائدة في قوله تعالى:

{وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} [المائدة: ٨٩]

قال العلماء: من حفظ اليمين ألا يكتر منها.

- لا يستعمل اسم الله إلا في الأمور العظيمة.
- كثرة الحلف تهوّن من قيمة اليمين وتضعف هيبتها.
- الإفراط في الحلف قد يدفع صاحبه للكذب.

قال تعالى:

{وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

[البقرة: ٢٢٤]

قال تعالى:

{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَهُم جَهَنَّمُ

جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٩٥]

كثرة الحلف لإرضاء الناس مذمومة، حتى لو كان الشخص صادقاً.

{فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}

ذكر العلماء في تفسيرها معنيين صحيحين:

المعنى الأول: صدّوا أنفسهم، لأن المنافق يحلف أنه صالح وصادق ليخدع الناس، فيظنونه كذلك، فلا ينصح ولا يعين على التوبة، فيصدّ نفسه عن سبيل الله.

أهمية طلب النصيحة عند العجز

من وقع في خطأ ولا يستطيع إصلاح نفسه، يجوز له طلب النصيحة من أمين ناصح، فهذا طريق للنجاة، أما إخفاء الخطأ مع العجز عن الإصلاح استمرار في صدّ النفس عن سبيل الله.

المعنى الثاني: صدّوا غيرهم، أي انخدع بهم الناس فيختلطون بهم ويأمنونهم، فيبثّون الشبهات ويشيرون الفتن ويفسدون من حيث لا يشعر بهم.

لهذا قال الله تعالى:

{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة: ٤٧]

قال تعالى:

{فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨١]
في غزوة الأحزاب، اندس المنافقون بين المؤمنين، وحرصوهم على ألا يخرجوا.
يقولون لهم؛

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: ١٢-١٣]
المفارقة أن يُقال هذا الكلام عن شخص ظنّ أنه مؤمن، لكنه أفسد غيره وأبعد الناس عن سبيل الله.
المنافق يبث السموم الفكرية والدينية، ويصدّ الآخرين عن الطريق الصحيح.

مثال معاصر

المنافقون في الإعلام ووسائل التواصل، أسماءهم إسلامية، يظهرون كدعاة، لكنهم يطعنون في القرآن والسنة ويزرعون الشبهات حول الصحابة، ويدعون إلى حريات مخالفة للدين.
وموقف الجمهور منهم أن صدقهم بسبب مظهرهم وأسمائهم، فاحذرهم، فهم يتكلمون بلسان النفاق.

المنافق يُجَمِّلُ القول يبدو مؤمناً، بينما جوهره خلاف ذلك.

{إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

ذمّ لأفعال المنافقين لأنهم اتخذوا أيمانهم سترة للكفر والصد عن سبيل الله.

(الآية 3)

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}

أي أنهم آمنوا في الظاهر ثم كفروا في الباطن، فعادوا من الإيمان إلى حقيقة الكفر.

{فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}

الطبع على القلوب، فلا تعي وعظا، ولا توفق للخير.
عدم الفقه: أي عدم الفهم.

المنافق لا يفقه، وكذلك الكافر، طبع على قلوبهم لأنهم تجاوزوا حدود المعاصي، وناقضوا عن علم، وكفروا بالرسالة، ولم يشهدوا بنبوة الرسول، ولم يطلبوا الهداية، بل يمكرون ويدعون ويفسدون.

المنافق يختار الدنيا ويخشى خسارتها ويميل لموالات الكافر ظناً منه أنهم أقوى، بينما المؤمن لا يوالي الكافر، لعلمه أن الأمر بيد الله وأن الفتح من عنده، وأن رزقه مضمون، وأن الاستقامة والإيمان لا يتعارضان مع الرزق.

(الآية 4)

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ}

وذلك لأن المنافق يسعى خلف المال والدنيا والمناصب والوجاهة، فيتلقى دعماً من الكافرين لإنتاج البرامج، وإطلاق الحملات، وصناعة الدعاية والإعلانات الممولة، والإنفاق على شخصه؛ فيظهر في أبهى صورة: لباس فاخر، وطعام جيد، وصحة ظاهرة، ورفاهية عيش.

لا تدل المظاهر على الصدق؛ فحُسن المظهر، وقوة الخطاب، وطلاقة اللسان لا تكفي، الميزان الحقيقي هو السَّمْتُ والهُدْي، لا الزينة ولا حسن المقال.
الغريب أن المنافقين أنفسهم يتهمون الدعاة والمليزمين بتلقي تمويل خارجي.

العبرة بالجواهر لا بالمظهر وبالأفعال لا بالأقوال فقد يبدو الإنسان صالحاً في ظاهره، بينما يحمل قلباً فاسداً.

إذا أردت الالتزام، فاعمل على تهذيب جوارحك وباطنك قبل مظهرك الخارجي.

احذر أقوال المنافقين:

1. تجديد الخطاب الديني

المنافقون يدعون الحاجة لتجديد الخطاب الديني بحجج براقعة، مثل الحاجة للتنوير، وإعادة النظر في الفتاوى لمواكبة العصر.

الحذر: لا تغتر بالشعارات، فالتجديد الحقيقي لا يكون بمحو الدين وتحريفه، بل فهمه بعمق والحفاظ على جوهره.

2. حقوق المرأة والمساواة

يتحدثون عن حقوق المرأة والمساواة بأسلوب جذاب،

الحذر: لا مساواة بل للرجل والمرأة حقوق وحدود في الشريعة، والتكليف بعدل ومراعاة طبيعة كل منهما.

3. الإسلام دين السلام

يؤكدون أن الإسلام دين سلام وأن الجهاد دفاع فقط.

الحذر: فرض الله جهاد الطلب وهو واجب منظم وليس اعتداءً عشوائياً.

4. حدود التجديد

يحاولون تصوير التجديد كإلغاء الدين واتباع الغرب بشكل أعمى.

الحذر: عدم تغيير العقائد والأصول القطعية وعدم الابتداع والحفاظ على جوهر الإسلام وتعاليمه، وليس التشبه بالغرب أو محو الدين.

5. حرية الرأي والحدود

يروّجون لفكرة حرية الرأي على أنها مطلقة دون ضوابط شرعية تصل إلى التقليد الأعمى.

الحذر: يسعون إلى "حرية التعبير والإفساد" وتجاوز حدود الشرع.

غايته من ذلك كله محو الإسلام.

{كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ}

القول الأول: لا قيمة لهم ولا فائدة بل وجود الضرر، فهم كالخشبة المسندة إلى حائط، لا تستعمل

في شيء، بل قد تكون مضرّة؛ فقد يتعثّر بها أحد، أو تسد الطريق، أو تعطل المرور.

وجه الشبه كالأذى في الطريق الذي يؤمر بإماتته.

ولهذا قال الله تعالى بعدها:

{فَاحْذَرُهُمْ}

القول الثاني: لا قوام لهم بأنفسهم، فالكخشبة المسندة لا تقف وحدها، بل هي مستندة إلى غيرها.

وجه الشبه كذلك المنافق:

لا يقوم إلا لأنه مستند إلى أهل الإيمان، يتظاهر بالإيمان، فيأخذ وجاهة المؤمن، وهيئته، ومكانته، وبهذا الاستناد ينال قدرًا من الأمان، ويضمن بقاءه، فتُعصم نفسه وماله.

قال الله تعالى عن المنافقين في سورة البقرة:

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ}

[البقرة: ١٧]

أي: استناروا بنور ليس لهم، استعاروه من غيرهم. فانطفأ ما كانوا ينتفعون به، وبقوا في الظلمات. وكذلك حالهم يوم القيامة،

قال تعالى:

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}

[الحديد: ١٣]

ليست المشكلة أن تصدقهم أول مرة، ولكن المشكلة أن تظلّ مخدوعًا بهم.

نصيحة للشباب:

اعرف الحق أولاً، ثم اعرف أهله، ولا تجعل الأسماء والواجهات حجابًا بينك وبين الحقيقة، لا تخدعك العواطف ولا المظاهر، لا تُسلم لأحدٍ لمجرد أنه يتكلم باسم الدين، ولا تُسوّغ الكلام لمجرد أن قائله "طيب الظاهر".

رُبّ متكلمٍ يرفع راية الإسلام وهو يُهدد بنيانه من حيث لا يشعر.

{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}

فهم يخافون من نزول الآيات أن تفضح ما في قلوبهم. فالمنافق دائم القلق مرتاب لأنه يعلم أنه على باطل، فيظن أن كل صوتٍ موجهٍ إليه، ويخشى انكشاف أمره. ويخافون من آيات العذاب أو الوعيد، يشعرون أن الآية موجهة لهم.

ومن المعاني أيضًا، أن الصيحة هنا هي صيحة الجهاد.

إذا نودي فيهم: "جاهدوا" كانوا أول من يفر.

كما قال الله تعالى عنهم:
{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِواْ أَلْفِتْنَةً لَّاتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهِدُواْ
اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلَوْنَ أَلَدْبَرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا } [الأحزاب: ١٤-١٥]

{هُمُ الْعَدُوُّ}

المنافقون أخطر من الكافر؛ الكافر صريح العداوة.

أما المنافق، فمشكلته أنه يتستر بالإسلام، فيُربك الناس، ويُفسد من الداخل، ويصعب كشفه أو التعامل معه بوضوح، ولهذا كان أخطر إذ ينخر في جسد المسلمين، وغالبًا لا يُعرف، ولا يمكن التعامل معه.

ولذلك لم يُقتل المنافقون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، حتى لا يُقال إن محمدًا يقتل أصحابه، فتتشوّه صورة الإسلام.

{فَاحْذَرَهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}

فكان الحل واضحًا: الحذر والتحذير منهم، ومعرفة خطرهم، وعدم الاغترار بظاهرهم. في شأن الكفار، قال تعالى:

{قَتِلُوهُمْ}

بضاعة المنافق وسلاحه هو الكلام؛ لا يرفع سلاحًا ولا يُواجه بسلاح، لكنه يفسد وهو آمن بين المسلمين.

فإذا أبطل كلامه وكُشف باطله، سقط سلاحه، وكان ذلك كافيًا بإيقاف خطره.

يُتعامل مع المنافق بأمرين:

ألا يُقدّم ولا يُمكّن، فلا يُوضع في موضع تأثير.

وَألا يُصغى إليه، ولا يُؤخذ كلامه بعين الاعتبار.

ولأجل ذلك حرص الكفار على العكس: أن يتصدّر هؤلاء المنافقون وأن يُستمع لهم.

خطر المنافق

ينصح الدعاة ويحذرون بعدم سماع المنافق، حرصًا على المصلحة، وقد يعترض بعض الشباب قائلًا: أريد أن أسمع لأفهم ما يقول.

فإذا تكلم زَيْن باطله وأعجبه منطقته، فدخلت الشبهات قلبه ويصبح حائرًا يقول: كلامه مقنع! ولهذا قيل لك من البداية: لا تسمعه.

خطر المنافق قائم ما دام له مستمعون، لأن قوته في الكلام والتأثير لا في السلاح المباشر. فإذا وجد من يسمع له، استمر في نشر الشبهات وبث الفتنة.

من صور الحذر العملي من المنافقين:

عدم تمكينهم في المناصب.

عدم تقديمهم في الإعلام.

عدم السماح لهم بالمنابر أو القنوات.

لما فيه حماية للمجتمع.

الموقف منهم:

عدم السماع لهم والتضييق عليهم والحد من تأثيرهم، حتى يتركوا طريقهم أو يتوبوا إلى الله.

{قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} الدعاء عليهم بالهلاك واللَّعْن.

(الآية 5)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}

قيل: هذه الآيات نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول، زعيم المدينة قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم، كان له وجاهة بين الناس، أظهر إسلامه بعد بدر، ولم يظهر نفاقه إلا متأخرًا.

مواقف عبدالله بن سلول الدالة على نفاقه

تعظيم النفس والتقدم الظاهري للنبي صلى الله عليه وسلم، كان عبد الله بن أبي يستغل مكانته الاجتماعية قبل الإسلام.

وكان كل جمعة، يقف قبل صعود النبي صلى الله عليه وسلم المنبر يقول:

«أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم... فانصروه وأطيعوه»

ليس تعظيمًا للنبي عليه الصلاة والسلام، بل تثبيتًا لصورته كزعيم وكأنه يظن نفسه صاحب فضل على الناس.

الانسحاب بثلاث الجيش في غزوة أحد قبل القتال، هذا أول عمل فاضح لنفاقه، إلا أن بعض الناس لا زالت تظن به خيرًا.

فبعد ذلك، عاد في الجمعة التالية ليتقدم ويتكلم، فقام له المسلمون وقالوا: «اجلس يا عدو الله،

لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت».

فخرج من المسجد يتخطى رقاب الناس.

قال باستخفاف: «والله، لكانما قلتُ بجرّاء» (أي: كلامًا تافهًا!) هذا يدل على: عدم الندم والاستكبار، والاستخفاف بالدين وبالناس. رفضه استغفار النبي صلى الله عليه وسلم له (تطبيق مباشر للآية) لما لحقه بعض الصحابة وقالوا: «ارجع، يستغفر لك رسول الله» قال بوضوح: «والله ما أبتغي أن يستغفر لي» وهنا نزلت الآية الكريمة.

حادثة وشاية الغلام وكشف كذبه، في رواية أخرى أن سبب نزولها، أن غلامًا من قرابته سمعه يتكلم بكلام نفاق فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم. عبد الله بن أبي: فأنكر وحلف بالله كذبًا، فلام الأنصار الغلام. فأنزل الله الآيات تبرئة للغلام وفضحًا لعبد الله بن أبي. ثم قيل له: «تعال يستغفر لك رسول الله»، فلوى رأسه وقال: لست فاعلاً.

{لَوْوَا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} لوى رأسه استكبارًا، أعرض بجسده وقلبه، وهذا هو قمة النفاق: يُعرض عليه أعظم شرف، فيرفضه كبرًا.

(الآية 6)

{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} تأكيد حتمية عدم مغفرة الله للذين كفروا، فلا تنفعهم شفاعة أو استغفار، بسبب فسقهم وفساد أعمالهم.

(الآية 7)

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا} وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} وكان من أعماله التحريض الاقتصادي على الصحابة.

القصة:

وقع شجار على الماء بين رجلين من الأنصار والمهاجرين، عندها جلس عبد الله بن أبي مع قومه، وسمع ما يحدث، فقال: "قد ثاورونا في بلادنا! والله، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: 'سَمْنُ كلبك يأكلك!'"

وكان يقصد النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم تابع قائلاً:

"والله، لئن رجعنا إلى المدينة لُيُخرجنَّ الأعز منها الأذل!"

وأقبل إلى من كان عنده من قومه من المنافقين وقال لهم: "هذا ما صنعتم بأنفسكم! لقد أعطيتهم هؤلاء النخل والثمار، وقاسمتهم الأموال. أما والله، لو كففتهم عنهم، لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها!"

يقصد نفسه بالأعز، ويقصد النبي عليه الصلاة والسلام بالأذل وهذا كفر صريح.

{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}

تؤكد أن الله وحده هو المالك والمُتصرف في أرزاق الخلق، ردًا على قول المنافقين.

تكذيب المنافق وبراءة زيد بن أرقم

سمع الصحابي زيد ابن الأرقم بذلك فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله، مَرَّ عباد بن بشر فليضرب عنق هذا المنافق، عبد الله بن أبي».

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟» ثم قال: «نادي يا عمر بالرحيل».

وكان ذلك في طريق العودة من غزوة بني المصطلق. فأراد النبي صلى الله عليه وسلم إيقاف الفتنة، ولم يشأ قتل عبد الله بن أبي؛ لئلا يُقال إن المسلمين يقتلون بعضهم، فتكون مفسدة أعظم وهي الصد عن الإسلام، وأمر بالرحيل حتى شغل الناس بالسير عن الكلام، وكان ذلك تصرفًا بالغ الحكمة. اختيار النبي صلى الله عليه وسلم تحمّل مفسدة صغرى (تحمل المنافق) على مفسدة كبرى (قتله فيصد الناس عن دخول الإسلام).

في الطريق التقى أسيد بن حضير، الجيش فسلم على النبي وقال: "يا رسول الله، لقد رحت في ساعة منكراً"، في إشارة إلى تحرك الجيش في وقت غير معتاد.

ثم أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما قاله عبد الله بن أبي: "زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعرز منها الأذل".

فقال أسيد بن حضير رضي الله عنه: "فأنت يا رسول الله العزيز، وهو الذليل!"، داعيًا النبي للرفق به، وكان يرى أن عبد الله بن أبي يطمع في ملك المدينة.

فاستمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمسير طوال الليل والنهار حتى اشتد الضحى، ثم نزل في مكان فنام الناس فوراً، أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين، تصدق كلام زيد بن أرقم، وتكذب عبد الله بن سلول.

{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}

الالتزام بطاعة الله لا يمنع الرزق، فالمؤمن مطمئن لأن رزقه مكتوب عند الله، والخوف من الفقر بسبب الطاعة سوء ظن بالله.

الخوف المبالغ فيه على الرزق علامة نفاق، وأن الالتزام لا يمنعه، فكل شيء بيد الله والرزق مكتوب.

{وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}

يظنون أن الدنيا معيار الرزق والنجاح والصلاح والمنهج الصحيح.

المؤمن الصادق لا تفتنه الدنيا ولو ضاق عليه رزقه.

الشیطان يوهم الإنسان بأن الالتزام يمنعه من الرزق أو الارتباط والزواج، وهذا خطأ. فالملتزم إنما سيرزق برزق الله، سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة.

قال تعالى:

{وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}

[الزمر: ٣٨]

لا يحملك استبطاء الرزق أن تطلبه بمعصية الله.

التاريخ يثبت ذلك: فالصحابة كانوا فقراء ثم رزقهم الله بغنى ونعيم، مع استمرار التزامهم بالدين.

(الآية 8)

{يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}

رد الله عز وجل على عبدالله بن سلول؛ أن العزة والمنعة الحقيقية لله وللمؤمنين.
{وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}

جهلهم الحقيقي وزعمهم أنهم الأعداء، اغترارًا بما هم عليه من الباطل، فبين الله أن العزة لله يعطيها لمن يشاء وأنه لن ينالها إلا المؤمن.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ فِي اسْتِغْنَائِهِ عَنِ النَّاسِ".
الطريق إلى العزة هو طاعة الله والعمل الصالح.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَاتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ".

أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

النفاق يضر صاحبه قبل أن يضر الآخرين، لأنه يسبب له تشويشًا في الإدراك والتقدير، يضل صاحبه ويبعده عن الحق.

موقف بارز في الولاء والبراء: عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول

موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول يُجسّد قوة الولاء لله ورسوله فوق كل اعتبار؛ إذ منع أباه المنافق من دخول المدينة حتى يعلم أباه من هو العزيز ومن هو الذليل، وأنه صلى الله عليه وسلم هو العزيز وأن العزة لله ورسوله، وحتى يأذن النبي صلى الله عليه وسلم، فأذن له فدخل المدينة.

كما بلغ من صدق إيمانه أنه عرض واستعد لقتل أبيه بنفسه إن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وأن يأتيه برأسه، مقدمًا العقيدة على رابطة النسب.

(الآية 9)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

طريق النجاة من داء النفاق

مشكلة المنافق هي حرصه على الدنيا، تعلقه بها، خوفه من أن يفقد هذه الدنيا لو التزم أو تاب. فكان العلاج أن نصح التصورات أيضًا، ويعرف ما حجم كل شيء.

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾

الإلهاء هو الشغل المذموم، أي الانشغال الذي يضر الإنسان.

وجاء الأمر بعدم الانشغال بالمال والولد، والنهي عن الانشغال المذموم ونسيان ذكر الله، ومخبراً بأن من انتهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عن طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

يجب استعمال المال والولد في طاعة الله.

"نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ".

الذم ليس لذات المال أو الولد، إنما للإنشغال بهما عن الله.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

لأنهم خالفوا ما أمرهم به ربهم، وآثروا ما ينفعهم في عاجلتهم الفانية، "بدلاً مما ينفعهم في آجلتهم الباقية".

لا يشغلك المال أو الأولاد عن الله، فالكذب والغش والرشوة، والتفريط في الصلاة والصيام، والتنازل عن الدين من أجل العمل أو الأولاد والكسب الحرام، هذه علامات أن المال والأولاد ألهوك عن ذكر الله، وصاحبها خاسر في دينه، وكله داخل في **النفاق العملي** الذي كلما كثرت صفاته في العبد، اقترب من **النفاق الاعتقادي**. لذلك لا يأمن المؤمن على نفسه، خاصة عند الموت، وعليه أن يبتعد عن صفات المنافقين ويحذرهما.

اجعل سعيك على أولادك في طاعة الله باباً محموداً.

الفرق بين من همه الدنيا ومن همه الآخرة

قال النبي صلى الله عليه وسلم للناس صنفين في التعامل مع الدنيا:

"مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا هَمُّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَالْآخِرَةُ هَمُّهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ"

شخصان يقومان بنفس العمل، لكن الفرق في النية:

أحدهما يجعل عمله طريقاً لرضا الله، والآخر يجعل الدنيا غايته.

فمن قصد الآخرة لا يضل، ومن قصد الدنيا وحدها أصبح عُرضة للانحراف والنفاق.

أعظم علامة على خروج الدنيا من القلب هي الإنفاق بما يرضى الله؛ فكلما كان الإنفاق أكثر وأسرع، دلّ على أن قصدك بالمال الآخرة لا الدنيا.

من علامات المنافقين:

{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ} [التوبة: ٥٤]

المنافق يعيب المنفقين ويثبّطهم عن الصدقة، أمّا المؤمن فيُكثر من الإنفاق ولا يلمز المتصدّقين.

(الآية 10)

{وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}

{وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ}

التحفيز بالحث على الإنفاق، وأن المال من عطاء الله تعالى، وليس ملك لنا يعطيك الكثير ويطلب اليسير؛ زكاة كان أو نفقة، لتدخل به الجنة، وكلما زدت زاد أجرك.

{مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}

التخويف من التسويف

قبل فوات فرصة العمل الصالح، فإذا نزل الموت، لا ينفع الندم

فالمؤمن يعيش بين الرجاء بالثواب والخوف من الفوات.

الصدقة تُخرج حبّ الدنيا من القلب، لكن من الناس من لا يدرك قيمتها إلا عند الموت.

{فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}

أي لأتصدق، مما يدل على شرف الصدقة وعلو قدرها وعظم شأنها عند الله؛ فهي أول ما يتمناه الإنسان عند الموت.

أفضل الصدقة أن تكون وأنت حيّ صحيح، تحب المال وتحتاجه، لا عند الموت.

عن أبي هريرة قال:

أتى رسول الله رجل فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم؟ فقال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تؤجل حتى إذا بلغت الحلقوم.

أهمية الصدقة

(1) تطفى غضب الله وتكون سبب رضاه.

(2) تكون ظلّاً لصاحبها يوم القيامة.

(3) النجاة من النار وتحصّن الإنسان من عذابها.

(4) دليل على صدق الإيمان وإخلاص القلب لله.

- (5) لا تنقص المال بل تباركه وتزيده، خاصة إذا كنت تتدخر مالك في مشروع فيبارك الله لك فيه.
 - (6) تنزع حب الدنيا من القلب، فيزهد الإنسان ويتعد عن أسباب الذنوب.
 - (7) الصدقة من أعظم الأسباب الشرعية لحل المشاكل، تفريج الكروب.
 - (8) تزيل أسباب النفاق وتساعد على التحلي بالصلاح والبر.
- {فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ}

قال عليه الصلاة والسلام:
"يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن من الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار"

قال النبي صلى الله عليه وسلم :
" كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعُ نَفْسِهِ فَمُغْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا "

(الآية 11)
{ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
لا تأخير في الأجل متى انتهى.
فاعمل بأمانى أهل النار:
عندما يقول الكافر:

{ يَقُولُ يَلَيَّتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي } [الفجر: ٢٤]
قال تعالى:

{ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }
[المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠]
تذكير بأن اعمل صالحًا الآن ولا تؤجل الخير.

وعندما يُقال:
{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }
[آل عمران: ٣٠]

"فَتَجْنِبِ السُّوءَ، وَابْتَعدْ عَنِ الْمَعَاصِي وَأَصْحَابِهَا، وَاتَّقِ الشُّبُهَاتِ".

وعندما يقول الكافر:

{ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ }
[الزخرف: ٣٨]

فاستعد بالاستعاذة والتحصين والصلاة والأذكار لتبتعد عن الشيطان.

التطبيقات العملية

أكثر الصدقات، فهي علاج للنفاق وتُبعد حب الدنيا عن قلبك.

لا تلهك الدنيا ولا الأولاد عن الصلاة والذكر.

أحرص على الإنفاق على العلماء والدعاة وطلبة العلم وحلقات القرآن.

ابتعد عن المنافقين، ولا تساعدوهم أو تنشر لهم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

قَدْ رَسَلَهُ قَدْ سَمِعَ

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة الثانية عشر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 نلتقي اليوم في مدارسنا جديدة بعد الانتهاء من سورة المنافقون، لنبدأ سورة التغابن، وهي سورة عظيمة مباركة. قد يجد بعض الناس صعوبة في حفظها، لكن بعد هذا الدرس وما يليه يمكن حفظها بسهولة، فهي من أيسر وأمتع سور القرآن.
 نوصي بتجديد النية، والعمل بالعلم، ونسأل الله النور والهداية، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا.

التعريف العام بالسورة

اختلف العلماء في كون السورة مكية أو مدنية، والأشهر والله تعالى أعلم أنها مدنية.
 يقول العلماء إنها آخر المسبحات، أي آخر السور التي افتتحت بالتسبيح، سواء بلفظ: سَبِّحْ أو يَسْبِحْ أو سَبِّح.

محاوِر سورة التغابن

- 1) الحرص على طاعة الله تعالى.
- 2) الحرص على اغتنام الأوقات.
- 3) الحرص على اتقاء غضب الله سبحانه وتعالى؛ حتى لا يقع الإنسان في التغابن.

معنى التغابن

التغابن مأخوذ من الغبن، وهو مصطلح يُستعمل في البيع والشراء، فيقال: في هذه البيعة غبن. والمقصود هو الخسارة، غالباً بسبب الخداع.
 فقد تكون هناك سلعة ذات قيمة كبيرة، فيُخدع الإنسان فيبيعها بثمن بخس، فيقال: حصل غبن. أو تكون السلعة رخيصة، فيُخدع فيشتريها بثمن غالٍ، فيقال: حصل له غبن، أي خُدع وخسر وتغافل.

ولذلك يُسمى يوم القيامة يوم التغابن؛ لكثرة الخاسرين، بخسارة صفقة الدنيا التي لم تُبنَ على طاعة الله.

حتى المؤمن الذي سيدخل الجنة سيتحسّر يوم القيامة على التقصير الذي ارتكبه والدرجات التي فاتته.

هذه الحسرة تكون يوم القيامة فقط، أما في الجنة فلا حزن ولا حسرة.

الغبن الحق أن تُباع الحياة بغير الجنة؛ فالمؤمن ربح، والكافر والمنافق خسروا، وذلك هو التغابن. الحياة صفقة والأنفاس رأس مال وكأن الحياة صفقة، والنفوس الذي تتنفسه كنز، يمكن أن تشتري به جنة، أو تشتري به جحيماً، بحسب كلامك وبحسب أفعالك.

الأذكار صفقات رابحة

سبحان الله وبحمده: من قالها غُرست له نخلة في الجنة. لا حول ولا قوة إلا بالله: كنز من كنوز الجنة. الوقت حياة الإنسان، وكل لحظة يجب أن تُستثمر فيما يرضي الله، من ضيع لحظاته في الفراغ أو المعاصي خسر نفسه، ومن استثمرها بالخير فاز. فالصفقة مع الله سهلة لمن استثمر عمره بالخير.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]

الله سبحانه وتعالى أعطاك رأس المال: النفس، والوقت، والمال، والحياة نفسها. وأعطاك معها فرصة الاختيار: إما تجارة رابحة مع الله، وإما غبن وخسارة يوم الحساب.

قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]

أعظم نعمتين: الصحة والفراغ.

قال عليه الصلاة والسلام:

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" بيان مقدار خسارة الناس عند تضييع نعمتي الصحة والفراغ.

الفراغ الفراغ سيف ذو حدين: إن أحسن استغلاله نجا الإنسان، وإن ضُيِّع صار سبباً للغبن. كثيرون يمضون أوقاتهم في الهاتف، في المقاطع القصيرة، وفي الكلام الذي لا ينفع، فيذوب عمرهم بين برامج فارغة وأعمال بلا قيمة.

في يوم القيامة، ستُفتح دفاتر العمر، فيكتشف الإنسان كم أضاع من وقت، وكم ضاعت لحظاته في معصية، فيتمنى لو أنه قد استثمر كل ثانية في طاعة الله، قبل أن يندم على ما فات.
الصحة الصحة نعمة عظيمة، وكثير من الناس لا يقدرونها إلا بعد أن تضعف طاقتهم، فيبدؤون الصلاة والصيام، وهم عاجزون عن أدائها كما ينبغي.
والأولى هو استثمار أيام الشباب وقوة الجسد في السعي إلى العبادة والخير لا تضع صحتك ولا فراغك، فكل لحظة ضائعة تصبح سبباً للندم يوم القيامة.
اغتنم شبابك في الطاعة، وافرح به في العبادة.
قال النبي صلى الله عليه وسلم عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:
"شباب نشأ في عبادة الله"

استغل وقتك واشغله بطلب العلم، وحفظ القرآن، والعبادة النافعة.
ففي يوم القيامة يُقال لقارئ القرآن: اقرأ وارتي ورتل، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها.
تخيّل لو كنت حافظاً مئة أو ألف آية فقط، بينما يبلغ عدد آيات القرآن كله 6236 آية!
ستحزن حين ترى الآخرين يرتقون في الجنة، وأنت قد أهملت وقتك وشبابك وصحتك.
بادر بالعمل الصالح وحفظ القرآن، واجتهد في الطاعة؛ فإن الله تعالى يثيب العبد على قدر نيته الصادقة، حتى وإن لم يتمكن من العمل أو حال بينه وبينه عذر.
(الآية 1)

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}
التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل نقصٍ وعيب، وإثبات كماله المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.
فكل ما يصدر عنه جل وعلا إنما هو عن عدلٍ وحكمة، ولا يجوز الاعتراض على أقداره أو اتهام أفعاله؛ لأنه سبحانه منزّه عن الخطأ والظلم.
كل ما في الكون يشهد بكمال الله ويسبحه.
التسبيح الكوني يعني أن جميع ما في السماوات والأرض يسبح بحمد الله تعالى، فالكون كله خاضع لله ومُتّسق مع أمره.
وحين يسير المؤمن في طاعة الله على مراده، يكون منسجماً مع هذا الكون المسبّح، فيحبه ما في السماء وما في الأرض، وتؤيده الملائكة والطير، لأنه وافق فطرته وفطرة الكون كله.
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما مرّت عليه جنازة:
"مستريحٌ ومستراحٌ منه فقالوا: ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب"

بيان أثر الإيمان والطاعة في الكون عند الموت.

فضل التسبيح وعظيم أجره
وقد ثبت أن:

«سبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض»

كان عبيد بن عمير رحمه الله يقول: "تسبيحةُ بحمد الله في صحيفة المؤمن خيرٌ له من الدنيا وما فيها."

والتسبيح المقرون بالحمد أعلى وأكمل؛ فأن تقول: سبحان الله فضل عظيم، وأن تقول: سبحان الله وبحمده فهذا أعلى وأحب إلى الله.
التسبيح من الباقيات الصالحات، لأن التسبيحة تبقى عند الله، وأما الدنيا فإنها تفتنى.

قال تعالى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

[الكهف: ٤٦]

قال أهل التفسير: إن الباقيات الصالحات يدخل فيها:
سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾

له الملك أي: الله يملك كل شيء ويحكم فيه، وملكه التام يُستحق له العبادة وحده.

وهو دليل على التوحيد: فالمستحق للعبادة هو من يملك كل شيء.

وله الحمد، أي: له جميع الكمالات، فيُحمد سبحانه على كماله في خلقه، وأمره، ونهيه، وأفعاله، وأقواله.

فله الكمال المطلق من كل وجه.

كمال اجتماع الملك والحمد لله تعالى

اجتماع قوله: له الملك وله الحمد يدل على كمال الله المطلق؛ فالملوك قد يملكون لكن لا يُحمدون دائماً، أما الله فملكه تام وأفعاله كاملة بالعدل والحكمة، فاجتمع له كمال الملك وكمال الأفعال والأقوال، وهو كمال فوق الكمال.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وهذا يفتح باب رجاء عظيم؛ فربك على كل شيء قدير، فتعتمد القلوب عليه وتطلب منه بثقة. مهما تأخر أو قدّم أو أدخر لك الأجر، أو أعطاك في الدنيا أو الآخرة، قل دائماً: الحمد لله.

(الآية 2)

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

دلالات قوله تعالى:

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ }

1) استحقاق العبادة: فالخالق وحده هو المستحق للعبادة.

2) الدلالة على البعث: الخلق الأول يبين قدرة الله على إعادة الخلق، وإليه المصير.

3) دليل على القدرة الإلهية: أن الله قادر على كل شيء.

القول الأول: من منظور علم الله السابق

أي أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم مسبقاً من سيكون مؤمناً ومن سيكون كافراً، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ.

فالقدر والعلم الألهيان محيطان بجميع الخلق: من سيكون في الجنة ومن سيكون في النار، دون أي ظلم أو عبث، فهو علم سابق لا يخل بالعدل الإلهي.

القول الثاني: من منظور أفعال العباد وإرادتهم

الإنسان يختار بإرادته الحرة بين الإيمان والكفر؛ بين طريق الخير وطريق الضلال.

وهذا يدل أن العباد مسؤولون عن أفعالهم، وأن وقوع القدر مرتبط بإرادتهم وخياراتهم دون إجبار.

والقولان متكاملان: فالله يعلم المقادير ويكتبها، والعباد يعملون باختيارهم، ولا تناقض بين علم الله السابق واختيار العباد.

أركان القدر

1) علم الله السابق بما سيعمل الخلق.

2) كتابة الله للمقادير في اللوح المحفوظ.

3) خلق الله لأفعال العباد؛ أي أن العباد يملكون الإرادة، والله خلقها.

4) مشيئة الله النافذة؛ فلا يكون في ملكه إلا ما يشاء.

توضيح مسألة الجبر

بيان العقيدة الجبرية:

هي الاعتقاد بأن الله أجبر العباد على أفعالهم، وأن معاصي العباد وطاعاتهم من الله سبحانه بلا اختيار منهم، وأنه لا يملك من الأمر شيئاً. وهذه النظرية تعتمد على النظرة من زاوية علم الله السابق فقط؛ وهذا يوهم بوجود ظلم أو عبث من الله، حاشاه تعالى.

قال تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]

وقال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الأنبياء: ١٦]
والعقيدة الجبرية تتنافى مع قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]

الله له الملك والحمد، أفعاله حكيمة وكاملة، ولا يظلم عباده.

فالعباد غير مجبرين على أفعالهم، ولهم إرادة واختيار، كما جاء في القرآن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

ثبت الآيات مشيئة العباد وإرادتهم، وتؤكد أن أعمالهم صادرة عن اختيارهم، وأنهم مسؤولون عنها.

كما في قوله تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]

فالعامل ينسب إلى العبد، ويحاسب عليه.

ولفهم مسألة القدر فهما صحيحاً، يجب الجمع بين أمرين: علم الله السابق وإرادة العباد؛ فالنظر إلى أحدهما دون الآخر يؤدي إلى الانحراف.

فلو نظر الإنسان إلى القدر من زاوية العلم السابق فقط، وقع في وهم الجبر

ولو نظر إلى مشيئة العبد وحدها، وقع في وهم الحرية المطلقة التي تنفي سلطان الله وعلمه، كما

قالت القدرية، وكلاهما خطأ.

الفرق بين الخطأين

الجبرية: يزعمون أن الإنسان مسير بلا إرادة، فينسبون أفعاله إلى الجبر، وهذا يتعارض مع ثبوت إرادة العبد ومع كمال ملك الله.

القدرية: يزعمون أن الإنسان مخير استقلالاً، فينفون علم الله السابق وسلطانه على أفعال العباد. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»

يدل الحديث على أن للإنسان إرادة وقدرة يعمل بهما ويحاسب عليهما، وفي الوقت نفسه فإن عمله داخل في علم الله وتقديره وتيسيره، فلا جبر ولا استقلال عن مشيئة الله.

فالإنسان ميسر، يملك قدرة وإرادة حقيقتين. وفعله لا يقع إلا باجتماع القدرة والمشية.

أما الفعل الناتج فهو مخلوق لله، وينسب إلى العبد لأنه جزم إرادته ووافق بها ما شاء الله، فاستحق الثواب أو العقاب.

خلاصات مهمة في مسألة القدر:

لا يقع في ملك الله إلا ما يشاء، ومع ذلك لا يجبر العباد على أفعالهم الاختيارية.

للعباد قدرة ومشية، وبها تصدر أعمالهم. على أساسها يكون الحساب.

المنهج الصحيح يجمع بين سلطان الله وعلمه وقدرته، وبين إرادة الإنسان واختياره.

تنبيه: لا يتوسّع في الخوض في القدر؛ فهو من أسرار الله، والواجب فهم هذا التوازن والوقوف عنده، لأنه مرتبط بصفات الله وإرادته.

خطورة الاحتجاج بالقدر على المعصية

لا يجوز استخدام القدر حجة للكسل أو المعصية، كأن يقول الإنسان: «لو شاء الله لهداني، فلماذا أعمل؟». فهذا فهم خاطئ، فالدين يعلمنا أن لنا مشيئة وقدرة على العمل، وعلينا السعي مع العلم بأن كل شيء يحدث بإرادة الله، مع تحمل مسؤولية أعمالنا.

تقريب معنى القدر بمثال الرزق

يفهم الناس القدر في مسألة الرزق: أن الرزق مكتوب لكل إنسان، وأنه لا بد من السعي لذلك، فلا يجلس الإنسان متكلاً على القدر، بل يعمل ويجتهد ليصل إلى رزقه، سواء بالعمل أو الدراسة أو غيرها.

لكنهم لا يطبقون ذلك على الطاعة والمعصية: الله كتب أهل الجنة وأهل النار، لكنه كتب الأسباب المؤدية لذلك، أي السعي والعمل. الإنسان لا يعلم ما كُتب له، لذلك عليه أن يسعى ويأخذ بالأسباب، سواء في طلب الخير أو الابتعاد عن الشر. حتى الفقير يسعى للغنى، والمذنب يسعى للتوبة، لأننا لا نعرف ما كُتب لنا عند الله. الفهم الصحيح للقدر يجعل الإنسان يعمل بجهد، كما كان يفعل الصحابة. ورد عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا: «ما كنا أشد اجتهادًا في العمل إلا بعدما فهمنا القدر». لأن النتيجة مرتبطة بالسبب.

فلنتأمل قول الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [الليل: ٤-٧]

نسب الله الفعل للعبد: أعطى، واتقى، وصدق، ثم قال: فسنيسه.

وكذلك قال:

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل: ٨-١٠]

تيسير اليسر وتيسير العسر مرتبطان باختيارك، ولك كسب ودور في النتيجة. الفرق بين الجبر والاختيار

لا يصح أن نقول إن الإنسان مجبر على كل شيء. هناك أمور جبرية لا يحاسب عليها، مثل دقات القلب، جريان الدم، اللون، أو الجنسية.

لكن الإنسان يحاسب على ما له فيه اختيار، مثل الصلاة أو الشتم، لأنه يملك القدرة على الاختيار. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الله يعلم من يهdy ومن يضل، وله الحكم المطلق والقدرة الكاملة، وأن الحكمة من عدم هداية الجميع ليست من شأننا، بل تكمن في علمه وحكمته المطلقة.

﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]

حكمة الله أن يهدى من شاء بفضله، ويضل من رفض الهداية بعدله.

يكفيك من مسألة القدر التسليم التام لله بعد الأخذ بالأسباب، والرضى دون اعتراض.

(الآية 3)

{ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }

الآية دليل على البعث، وخلق السماوات والأرض أعظم من خلق الناس.
قال تعالى:

﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]
فمن قدر على الأعظم، فهو على الأصغر أقدر.

قال تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾
[يس: ٨١]

ومن باب أولى قدرته على بعث من في القبور.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

أي خلقكم، جعلكم في أجمل صورة وأحسن تقويم، فالإنسان هو أحسن المخلوقات صورةً وأبهاها منظرًا.

(الآية 4)

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

الله عليم بما تضره الصدور وما تخفيه النفوس.

فحسن سريرتك، وجمل باطنك،

ولا تنشغل بالظاهر فقط.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

القلب هو محل نظر الله سبحانه وتعالى ومستقر أنواره، حيث لا ينظر إلى الأجسام بل إلى القلوب والأعمال، فالقلب إذا صلح، صلح الجسد كله.

فليكن باطنك كظاهرك بل أفضل.

مناهج الدعوة وتنويع أساليب الإقناع

وبعد عرض الآيات السابقة الحجج العقلية في الدعوة إلى الله، كإثبات البعث والتوحيد والقدر، ينوع الله أساليب البيان، فيصرف الآيات ويعرضها بطرق متنوعة لتصل إلى عقول الناس وقلوبهم.
كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]

(الآية 5)

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَدَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}
فمن طرق الإقناع التي يستخدمها الله تعالى: مخاطبة الناس بقصص الأمم السابقة، التي مرّت بنفس أحوالهم، وبيان نهايتهم.

آلم يصلكم خبر قوم لوط، وخبر قوم عاد وثمود وقوم نوح؟ هؤلاء جميعًا جاءهم رسل، ودعوا لمثل ما دعا إليه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكذبوه، وكانت نهايتهم معروفة.
قال تعالى:

{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِلَيْلٍ آفَلا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧-١٣٨]
الاعتبار بمصائر السابقين أسلوب دعوي مؤثر، يكشف سوء عاقبة المعصية وحسن عاقبة الطاعة، فالهلاك سببه تكذيب الحق.

(الآية 6)

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}

بين الله عز وجل الرد على الآية السابقة، فالقصة واحدة؛ قالوا كما قال من قبلهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾
ينبغي الاتعاظ من الأمم السابقة.

تناقض الباطل وعدم ثباته

هذه الجملة خطيرة؛ لأنها تدل على أن الباطل متناقض دائماً.

فالقاعدة: كلما تعاملت مع الباطل، ستجده مضطرباً، متناقضاً، لا يثبت على قاعدة، لأنه بلا أصول.
أما الحق فقواعده ثابتة.

قال الله تعالى:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٤-٢٥]
وضرب مثل الكلمة الخبيثة:

{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} [إبراهيم: ٢٦]
فكل باطل لا قرار له، ولا ثبات، ويمكنك أن تستدل عليه من كلامه نفسه.

{أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}

اعتراضهم على بشرية النبي صلى الله عليه وسلم متناقض؛ فإن كانوا يعترضون على كونه بشراً فهم لا يرفضون مضمون الرسالة، بل حاملها، والعبرة بالرسالة لا بالرسول. بل إنهم تناقضوا أكثر، فوصفوه بالكذب والسحر والجنون، ثم اشترطوا أن يكون الرسول بشراً عظيماً في نظرهم، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]

حكمة إرسال الرسل من البشر أنهم أقرب للفهم والافتداء، فلو أرسل ملك لاعترضوا بعدم القدرة على اتباعه، لأنه لا يشاركونهم صفاتهم البشرية

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩]

فكان إرسال بشر من جنسهم أولى، لفهمه والافتداء به.

﴿ فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

الله غني حميد، عبادتنا لا تزيده ولا كفرنا ينقصه. ملكه ثابت مهما كانت قلوب الناس. الغنى الحقيقي في الفقر إلى الله، والعز في التوكل عليه.

(الآية 7)

﴿ رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

زعم: تدل على قول بلا دليل، فكان إنكارهم للبعث دون دليل.

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾

فأقسم الله بنفسه على البعث، والقسم له أثر يقع في النفوس. أقسم الله على البعث ثلاث مرات في القرآن:

(1) في سورة يونس، قال تعالى:

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣]

(2) في سورة سبأ، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣]

(3) في سورة التغابن، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثْنَ﴾ من أنكر البعث خالف مقتضى العقل، فالذي خلق الإنسان من عدمٍ قادرٌ على إعادته. لذلك يجب الاستعداد للوقوف بين يدي الله ومحاسبة النفس.

{ثُمَّ لَتُنَبَّؤَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ}
الإنسان مبعوث ثم موقوف للحساب بين يدي الله، ومن علم ذلك يعلم مسؤوليته، ومن علم مسؤوليته فليعد جوابًا لسؤاله.

(الآية 8)

{فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}
النور هو القرآن، ففيه نور للحياة، نور للصدر، نور للقلب.
قال النبي صلى الله عليه وسلم:
«اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري».
فلا بد من الفهم، والتدبر، والعمل.

(الآية 9)

{يَوْمَ يَجْمَعُكُم لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}
سَمِّيَ يوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين
وقيل: لأنه يجمع الإنسان مع عمله،
وقيل: لأنه يجمع الظالم والمظلوم.
وهو يوم التغابن؛ لأن أكثر الناس خسروا، وباعوا الآخرة بالدنيا.
وسمّاه الله يوم الحسرة، قال تعالى:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]
كل الناس يتحسرون يوم القيامة؛ الكافر على كفره، والمؤمن على الوقت الذي ضيَّعه في أمور لا تنفع.

من صور التغابن في الدنيا:

الأكل الكثير، النوم الزائد، إضاعة أوقات الفراغ في الملهيات، وسائل الإعلام، الترنادات، أو ترك استغلال الأعمال الصالحة؛ وإضاعة الوقت والفرص دون زيادة في الإيمان.

النتيجة قبل دخول الجنة:

يُحاسب الإنسان على الوقت والجهد الضائعين:

أما غبن الكافر فبترك الإيمان، وأما غبن المؤمن فبالتقصير في الإحسان.

أعلى صور الغبن للكافر: رؤية مقعده في الجنة وما كان يمكن أن يناله لو أطاع الله، فيزداد حسرة وغماً.

أعلى صور الغبن للمؤمن:

التقصير؛ حين يرى مافاته من درجات وإن كان بإمكانه زيادة الحسنات فيندم.

في الآخرة ما لا يمكن تعويضه؛ فاشتغل الآن.

الصفة بين الله والإنسان

منح الله الإنسان الحياة، الصحة، العمر، المال، النفس، القدرة، والإرادة.

من استثمر هذه النعم في الطاعة فاز بالجنة.

قال تعالى:

{ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى } [طه: ١٢٣-١٢٤]

أمثلة على الغبن:

رجل تعلم علماً وعمل به فنجاء، والآخر تعلم ولم يعمل فدخل النار.

رجل اكتسب مالاً بطريقة محرمة، فأنفقه الورثة في طاعة الله فدخلوا الجنة، أما هو فعُذب.

رجل عبد الله بصدق، ورجل آخر ابتغا به وجه الناس فتوجه إلى النار.

التحذير من المغفلين

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [التغابن: ١٠]

يجب على الإنسان ألا يضيع عمره ووقته، وألا يغفل عن أمر الله، وألا يترك الشيطان يخدعه.

{ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

{ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التغابن: 9]

نسأل الله أن يرزقنا اليقظة والوعي والفهم، وأن يمنحنا الهمة والعزيمة والإرادة، وأن يوفقنا للتوبة

والعمل الصالح.

اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

قَدْ رَسَيْتَ قَدْ سَمِعْتَ

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة الثالثة عشر

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد؛ فمرحبا بكم في هذا اللقاء المبارك لمتابعة مدارس سورة التغابن.

مدخل إلى سورة التغابن

في اللقاء الماضي بدأنا دراسة السورة، وبيّنا أن محورها هو معنى **الخسران**. وسمّي يوم القيامة يوم التغابن لأن الجميع يتحسّر فيه؛ فالكافر على ما فاتته من الإيمان، والمؤمن على تقصيره في الطاعات.

(الآية 11)

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

الإيمان بالقدر ومعنى المصيبة

تُعدّ هذه الآيات من الآيات الدالة على الإيمان بالقدر، وهو أصلٌ عظيم من أصول العقيدة، فالله سبحانه وتعالى علم وكتب ما كان وما سيكون، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، وهو خالق أفعال العباد، وقد خلق الله للإنسان قدرة وإرادةً، وباجتماعهما يقع الفعل، فيكون مخلوقاً لله ومكسوباً للعبد، فيُحاسب عليه.

وهناك مصائب تقع خارج اختيار الإنسان، كالموت والمرض والحوادث، وكلها تقع بإذن الله.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ربط سبحانه وتعالى بين الإيمان الصحيح بالقدر وبين هداية القلب.

اليقين بأن المقادير مكتوبة

وتظهر آثاره عند وقوع المصائب. فالمسلم يؤمن بأن:

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

وأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد

وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

نؤمن أن الله علم وكتب مقادير الخلق.

فإذا وقع الأمر علم المؤمن أنه قدر لا بد أن يقع، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك».

ومن تمام الإيمان أنه لا يصح الاعتراض بعد وقوع الأحداث.
قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«ولا يقولن أحدكم: لو كان كذا لكان كذا؛ فإن "لو" تفتح عمل الشيطان، ولكن ليقُل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل».

" كلمة "لو" تجعل الإنسان يتأسف ويتألم ويندم، ويصل إلى مرحلة يكثر فيها من قول: لو كان كذا لما حدث كذا، فيفتح على نفسه باب عمل الشيطان، كما فعل المنافقون في غزوة أحد،" عندما قالوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦]

فالموت مكتوب عليهم لا مفر منه.

ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : 154]

قال تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لَّكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سُورَةُ الْحَدِيدِ: ٢٢-٢٣]

الأسى هو شدة الحزن، التي تؤدي إلى الإحباط والتعب النفسي.

الحزن عند المصيبة أمر فطري لا ينافي الإيمان بالقدر، فقد حزن النبي صلى الله عليه وسلم وبكى عند وفاة ابنه إبراهيم وأصحابه.

الإيمان بالقدر يهون المصيبة

الإيمان بأن ما وقع قدرٌ مكتوب عند الله يخفف وقع المصائب على الإنسان.

قال بعض السلف: ينبغي للمؤمن عند المصيبة أن يحمد الله على أربعة أمور:

1) أنها قد مرّت فلا محالة فيها.

2) أنها لم تكن أعظم من ذلك.

3) أنها لم تكن في الدين.

4) أن الله رزقك الصبر عليها وأعطاك أجرها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا».

المصيبة الحقيقية هي ما يصيب الدين، مثل ترك الصلاة أو الوقوع في الذنوب والمعاصي.

يُستحب أن يدعو المؤمن بأن يعوّضه الله خيراً في الدنيا، فإن المصيبة قد تكون فرصة لكسب الأجر وزيادة الثواب.

تفسير ابن كثير رحمه الله لمعنى الصبر والرضا

"ذكر في كتابه "المصباح المنير"

قال ابن كثير:

ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هُدىً في قلبه، وبقينا صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه

يهدى قلبه: إذا صبر واحتسب

ورضى بالله: عوّضه الله عما فاته من الدنيا.

قد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه: يعوضك بالهدى واليقين في القلب، وذلك أفضل من الدنيا التي فُقدت. وقد يعوضك بالدنيا نفسها أو بما هو خير منها.

قال تعالى:

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[الأنفال: ٧٠]

أصحاب الجنة عندما احترقت جنتهم، قَابَلُوا ذلك بفهم ورضا وقدرة على التوكل على الله، فقالوا:

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢]

الإيمان بالقدر يوازن مشاعر الإنسان بين الرضا وعدم التعلق أو المبالغة في الفرح.

ينبغي أن يكون الفرح بالنعمة مقروناً بشكر الله والرضا عنه، حتى لا يقود إلى العجب والكبر، مع استحضار أن كل فضل إنما هو من الله وحده، وأنه مقدّر ومكتوب في اللوح المحفوظ.

دور الإيمان بالقدر في مواجهة المصائب.

1. الإيمان بالقدر يمنح المؤمن السكينة والطمأنينة عند وقوع المصائب ويحميه من الإحباط أو الاكتئاب وبداية الأمراض النفسية.
2. الربط بين المصائب والتغابن: فقرة الإيمان تحدد تأثير المصيبة على الإنسان؛ فتكون للمؤمن القوي فرصة للصبر وكسب الأجر وتكفير السيئات، ورفع الدرجات، وتعلم الصبر، وتهذيب النفس. أما الضعيف فتتال منه وتثقل قلبه.
3. المؤمن يتفكر: هل المصيبة عقوبة أم ابتلاء، أو تكفير للذنوب؟ وكان السلف عند المصيبة يراجعون أنفسهم.
4. كل خير وشر يصيب المؤمن نافع إذا كان مطيعاً لله.

(الآية 12)

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾

قد تكون المصائب ابتلاءً من الله لا عقوبة، والمؤمن المواظب على طاعة الله ورسوله ينعم بالطمأنينة، ويحسن الظن بربه، موقناً أن كل ما يصيبه خير له. وعند نزول المصيبة، يراجع المؤمن نفسه متسائلاً: أهى عقوبة على ذنب، أم ابتلاء لرفع الدرجات وتكفير السيئات، كما ابتلي الأنبياء والصالحون؟ فيتفكر ويبحث عن موضع التقصير. وقد قال بعض السلف: «إني لأعرف ذنبي في خلق دابتي وامرأتي». أي أنه إذا واجه ما يكدر حياته، رجع إلى نفسه، فاستغفر الله وتاب، فتنصلح أموره ويجد أثر ذلك في استقرار أحواله. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"

يسعى المؤمن للصلاح، ويرجو الخير في المصيبة، متأملاً في معناها: أهى له أم عليه؟ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه:

"رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي".

تتنوع الحكمة من المصيبة بين رحمة وابتلاء وعقوبة واستدراج، ويبقى الميزان الفاصل هو حال القلب مع الله. فكلما قوي الإيمان، عظم أثر السكينة وهدأت النفس.

في قصة الخضر مع الغلام، كان قتله مصيبة عظيمة أحزنت والديه، لكن إيمانها جعلهما يطمئنان بأن ما حدث خير لهما.

قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]
إيمان الوالدين أكد أن هذا الحدث فيه خيرٌ لهما.

وفي قصة الخضر أيضًا بناء الجدار:

كان بناء الجدار مكرًا لليتيمين ورحمةً وحفظًا لمالهما لأن أباهما كان صالحًا، وكان مكرًا على أهل القرية لأنهم كانوا بخيلين وخبثين.
العبرة بالإنسان لا بالحدث؛ فكلما كان أطوع لله وأقوى إيمانًا، عاش مطمئنًا.
ولهذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما تعرض له من أذى وسخرية في رحلة الطائف، حيث أغرى المشركون الغلمان أن يرمونه بالحجارة، رفع يديه إلى السماء وقال:
"اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي".
الهم الحقيقي ليس في وقوع المصيبة، بل في سببها:
إذا لم تكن غضبًا، فلا مشكلة مهما كانت شديدة.

من كان بعيدًا عن الله يقلق حتى من الخير، فقد تتحول النعم إلى فتنة. أما المؤمن المطاع لله ولرسوله، فيسير مطمئنًا، واثقًا بأن كل ما يصيبه خير، سواء بدا له ظاهرًا خيرًا أو شرًا.
﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾

من أعرض عن الطاعة ضر نفسه، لا يضر الله ولا رسوله ولا الدعاة، والخسارة تقع عليه وحده.
من صور التغابن

أن تدفع المصيبة البعض إلى البعد عن الله، فيترك الصلاة، أو المسجد، أو تترك المرأة حجابها، فيكون رد الفعل على المصيبة سببًا لمصيبة أعظم؛ والإنسان لا يضر بذلك إلا نفسه، لذا فالحكمة في التعامل مع المصائب ضرورة لتجنب الخسارة المضاعفة.

(الآية 13)

﴿إِلَهُ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

الله وحده المستحق للعبادة، وفهم صفاته يعين المؤمن على التوكل عليه، حتى في المصائب.
الثقة بالله تجعل المؤمن يرى الخير في كل أحداث الحياة، حتى لو لم تُدرك حكمة ذلك فورًا.

التوكل في حياة الأنبياء

كان سيدنا يعقوب عليه السلام مثالاً حياً في التوكل وحسن الظن بالله، رغم المصائب التي تعرض لها

قال تعالى على لسان يعقوب:

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابَ وَحْدٍ وَادْخُلُوا مِنِّي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]

فحفظ الله سبحانه وتعالى له أولاده يوسف وإخوته، وحققت مصيبتة في النهاية خيراً له ولأسرته.

وقال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِمَّنِ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]

قال الله تعالى في الحديث القدسي:

"أنا عند ظن عبدي بي"

التوكل الحقيقي والاعتماد على الله أساس تحقيق الطمأنينة في الحياة، وأن كل ما يفعله الإنسان من أسباب يجب أن يكون مقروناً بالثقة في الله.

يتضح من الآيات الكريمة

التوازن بين الأخذ بالأسباب والتوكل؛ فالمؤمن يأخذ بالأسباب وي بذل جهده، ولا يعتمد عليها وحدها، بل يتوكل على الله.

الكمال في التوكل يتحقق بجمع السعي والعمل الصالح مع الثقة بالله، أما التقصير في العمل بالأسباب هو خلل في التوكل.

(الآية 14)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يحذر الله من أن بعض الزوجات والأولاد قد يكونون سبباً في خسارة الإنسان، ليس عداءً، بل لشدة الحب.

فبسبب العاطفة قد يطبع الإنسان ما يؤدي إلى معصية أو تقصير في الطاعة، فيضر نفسه ويخسر يوم القيامة.

﴿عَدُوًّا لَّكُمْ﴾

فالعَمَل الذي صدر منهم دون قصد هو عين ما كان العدو سيفعله، فالنتيجة واحدة رغم أن النية كانت المحبة.

كأن تمنع الزوجة زوجها من الذهاب لصلاة الفجر في المسجد بحجة أنها تخاف وحدها. أن تمنع الزوجة زوجها من صلة رحمه، فيؤجل زيارة أقاربه البعيدين أو يتركها مدة طويلة، فيقع في التقصير.

أن يكون الرجل عازماً على أداء العمرة، أو قادراً على الحج، فيطلب منه أولاده ألا يسافر. قد يرضي الأب أبناءه في أمور محرمة بدافع العاطفة، فيقع في المعصية بحجة إسعادهم، كالسماح بما فيه منكرات أو التفریط في الحجاب يوم الزواج. وهذه أخطر الصور؛ لأن الاستجابة هنا تحقق ما يريده الشيطان، وإن كان الدافع محبة الأب لأولاده.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي"، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال عمر: "الآن يا رسول الله، أنت أحب إليّ من نفسي". لا يستطيع الإنسان أن يترك الحرام أو يضبط سلوكه، مهما كان الدافع، إلا إذا كان حب الله ورسوله أعلى من كل حب.

الحل هو ترتيب المحبوبات: الدنيا صراع بين المحبوبات، وعند التعارض يجب أن يقدم المؤمن حب الله ورسوله على كل محبوب، حتى لو خسر بعض متاع الدنيا، فلا يطيع أهله في معصية رحمة وحماية لهم.

سبب نزول الآية:

نزلت الآية في مجموعة من المهاجرين وقيل إنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، حين أراد الهجرة من مكة إلى المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. ترددت زوجته في الهجرة فأقنعتة بالبقاء معها فترة في مكة، فاستجاب لها. فلما وصل إلى المدينة وجد أن الصحابة سبقوه في التعلم من النبي صلى الله عليه وسلم، فغضب واشتد عليه شعوره بالرغبة في معاينة زوجته. فأنزل الله تعالى الآية لتوجيهه إلى العفو والصفح والمغفرة.

لا تستقيم حياة العبد حتى يكون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من كل شيء، وإلا فسدت دنياه ووقع في المعصية.

قد يواجه الإنسان مواقف في حياته لا يحصل فيها على المال أو المصلحة إلا بارتكاب معصية، فلو كان حب الله ورسوله أحب إلى قلبه لاختارهما.

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

وُحُتِمَت الآية بوصف الفسق؛ لأن من قَدَّم هذه الأصناف من الناس على محبة الله ورسوله فاسق خارج عن طاعة الله.

يستطيع الإنسان أن يُرضي أهله، ويُحسن إليهم ويُداريهم من غير تفريط في دينه، فيحمي نفسه من التغابن والخسارة.

الحب الحقيقي لا يضر

الحب المذموم هو كل حب مقدم على حب الله وطاعته.

فإذا دفع هذا الحب صاحبه إلى فعل الحرام، دلّ ذلك على خلل في ميزان المحبة، إمّا:

بتجاوز حب المخلوقين، أو بنقص حب الله في القلب.

وليس كل استجابة دليل محبة؛ فالذي يحب غيره لا يضره، بل يمنعه مما يؤذيه في دينه ودنياه.

من يدفعك إلى الحرام لا يحبك، المحب الصادق هو من يعينك على طاعة الله.

كمثل حب امرأة العزيز ليوסף عليه السلام، الذي كان حباً شهوانياً لا حباً حقيقياً، فانقلب إلى عداوة.

الموقف الصحيح إذا طلب الأهل أمراً فيه معصية أو تعطيل لطاعة لا يُستجاب لهم، مع الرفق،

والاحتواء، وجبر الخاطر، وبيان أن الدين مقدّم على كل شيء، وتعويضهم بحسن المعاملة.

﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فمع عدم الاستجابة للمعصية، أمر الله بالتجاوز والعفو والصفح، لأن ما يصدر من الأهل غالباً يكون بدافع الحب أو سوء التقدير.

وهذا يبيّن أن العفو من ملامح القوامة وليست القسوة والتسلط بل رحمة وحكمة وعفو يقود

الأسرة إلى طاعة الله.

من جعل حب الله أعلى من كل شيء، سلم من الفتن، وحُفِظَت علاقاته، واستقامت دنياه وآخرته.

القوامة والحكمة في إدارة الأسرة
القوامة تعني صفات القائد؛ أي القدرة على التصرف بحكمة وإدارة من تحت قيادته، وفي بعض الأحيان يكون العفو والصفح والمغفرة هو الحل الأمثل.
ليس من الحكمة العقاب الشديد في كل موقف، بل العفو مع التوجيه والحكمة يضمن استمرار العلاقة.

الفرق بين العفو والصفح والمغفرة:
العفو:

هو عدم العقوبة، أي مسامحة الشخص وعدم عقابه.

الصفح:

هو عدم اللوم و العتاب.

فقد تُسامح شخصًا على أذى وقع منه، لكن تظل تلومه، وهذا غير صحيح. الصفح يعني أن تتجاوز عن العقوبة ولا تلومه على ما فعل.

المغفرة:

الستر الكامل وعدم إعادة ذكر الخطأ، سواء لك أو للآخرين.

فلا تُعيد الحديث عن الخطأ، ولا تُثيره أمام أحد، بل تغطيه تمامًا وتستره، وهذا من المروءة.

التعامل الحكيم هو ملاحظة الزلات والأخطاء وعدم إهمال التوجيه والنصح.

الزوج الحكيم يتعامل بالحكمة، ويعلم أن الزوجة قد تقع في أخطاء أحيانًا بسبب العاطفة أو ظروف الحياة.

الرفق أفضل من العنف،

قال صلى الله عليه وسلم:

"إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ"

فالبيوت تُدار بالمداراة، والمرأة تُقدّر من يُقدّرُها ويحترمها ويعاملها بلطف وكلام طيب.

عندما يسامح الزوج زوجته دون عتاب أو لوم، مع علمها بأنها مخطئة:

تُقدّر هذا التصرف كثيرًا، وتبذل جهدًا أكبر لإرضائه.

مما يُعزز الاحترام والحب المتبادل، ويقوّي الروابط الأسرية، مع الالتزام بما يرضي الله سبحانه وتعالى.

نصيحة عند اختيار شريك الحياة :

اختر ذي المروءة والأخلاق العالية، القادر على التسامح والاحترام، فهذا يسهل الحياة الزوجية ويجعلها برضا لله سبحانه وتعالى.

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

المكافأة عظيمة: من يعفو ويصفح ويغفر، له المغفرة والرحمة يوم القيامة. مبدأ المعاملة بالمثل مع الله

فكما تحب أن يعاملك الله يوم القيامة: لا يعاقبك، ولا يوبخك، ولا يفضحك، فابدأ بنفسك مع الآخرين: أعف، وأصفح، واغفر لمن أساء إليك.

قال النبي صلى الله عليه وسلم :

"الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء".

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"كان رجل من أمثالكم، لم يكن له خير كثير، ولكنه كان يقرض الناس قرضًا حسنًا ويبعث عامله عند السداد، ويقول: من وجدته موسرًا فخذ منه، ومن وجدته معسرًا فتجاوز عنه، لعل الله أن يتجاوز عني غدًا" فلقى الله فقال له: "له نحن أحق بذلك منك"، فتجاوز عنه وأدخله الجنة."

التسامح والعفو عن الآخرين قد يكون سببًا لتجاوز الله عنا يوم القيامة.

من باب أولى أن يبدأ الإنسان التسامح مع الأقرب: الزوجة والأولاد، فالأخلاق الحقيقية تظهر في المنزل، وليس أمام الناس، فالعصبية والشتم مرفوض داخل الأسرة.

قال صلى الله عليه وسلم:

"خيركم خيركم لأهله"

وقال الله تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[الأنفال: ٢٨]

أي أنهم اختبار من الله للصبر والحكمة والتعامل الصحيح، وليست الفتنة شيئًا سلبيًا بالضرورة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"الولد مجبنة، مبخلة، مجهلة"

المجبنة: أي أن الولد قد يجعلك تخاف على نفسك ولا تذهب للجهاد في سبيل الله خوفًا من مصيره بعدك، حتى لو كان رضيعًا لم يطلب منك شيئًا.

المبخله: تجعل الإنسان يبخل في الصدقة، وقد يمتنع عن أداء الواجبات أو المستحبات، ويضع المال أولاً لأولاده على حساب ما يجب إخراجه.
المجهلة: تجعل الإنسان يقصر في طلب العلم أو حفظ القرآن أو حضور مجالس العلم.
فالولد فتنة واختبار ينجح فيه الإنسان أو يفشل.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه،

ثم قال :

"صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما"

(الآية 16)

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

يتقون الله بقدر طاقتهم، وبذل الجهد والمستطاع في الامتثال، فالفعل متعلق بالاستطاعة.
ضوابط لكي ينجح الإنسان في اختبار الفتنة مع الأولاد والأموال:
الالتزم بشرع الله في اكتساب المال والإنفاق، وتجنب الحرام.
الإنفاق في سبيل الله.

الحرص على أداء الواجبات المستطاعة، مع بذل الجهد في المستحبات.
قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"ما أمرتكم به من أمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه"

﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾
الإنفاق يعوض التقصير.

" قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ""فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

قال النبي صلى الله عليه وسلم:
«والصدقة تطفئ غضب الرب»

كما جاء في الحديث أيضًا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:
«رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»

قال صلى الله عليه وسلم للنساء:

«يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار»

الصدقة تحمي الإنسان من الوقوع في النار بسبب التقصير، وتكفر الذنوب وتطهر النفس.

الصدقة تطهر القلب من حب الدنيا

الصدقة أفضل استثمار للمال، بالاستفادة من مالك في طاعة الله فتجنبك التغابن يوم القيامة.

أثر الصدقة في الحماية من الفتنة

الصدقة تنزع البخل والشح من القلب، وتحمي من حب الدنيا وأمراضها الروحية، وتمنع الإنسان من المعاصي كالغش والسرقة والظلم.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

فالإنسان الذي يوق شح نفسه ويتعدى عن البخل هو المفلح

الشح أعظم من البخل:

البخل: هو الامتناع عن العطاء مما في يدك.

الشح: هو الامتناع عن العطاء مما في يدك مع الطمع فيما في أيدي الآخرين.

الشح يؤدي إلى قطع الرحم، وعقوق الوالدين، والسرقة، والغش، والرشوة.

علاج الشح هو الصدقة التي تضعف هذا المرض تدريجيًا، وتحرر العبد من التعلق بالدنيا، فتزهد النفس في الدنيا، ولا تقع في المعاصي.

الآية 17)

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾

الصدقة تشبه القرض الحسن، فتعود للمتصدق وقد ضاعف الله أجرها، وغفر بها الذنوب. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«ما من مسلم مؤمن يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، إلا أخذها الله بيمينه فنامها له وربّاهَا له كما يربي أحدكم فلوه، حتى تصبح مثل الجبل يوم القيامة»
الفلوة: الحصان الصغير.

﴿شُكُورٌ حَلِيمٌ﴾

شكور: يعطي الكثير على العمل القليل.
حلیم: يؤخر العقوبة عند الخطأ.

(الآية 18)

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

عالم الغيب والشهادة: يعلم كل ما كان وما سيكون وما لم يظهر بعد.

العزیز: الذي لا يُغلب ولا يُغالب.

الحكيم: في كل شرعه، وكل أمره، وفيما قضى لعباده، وما أوقعه عليهم من الأقدار، حتى المصائب له حكمة فيها سبحانه وتعالى.

أسأل الله أن يرزقنا الفردوس الأعلى، وأن يحب إلينا الإيمان والقرآن، ويعيننا على طاعته. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قَدْ رَسَدَ قَدْ سَمِعَ

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة الرابعة عشر

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

نلتقي اليوم بعد أن أنهينا **سورة التغابن** بفضل الله، لنبدأ **سورة الطلاق**، التي يظنها البعض صعبة حفظًا وفهمًا لكثرة أحكامها.

لكن بدراستها سنجدها واضحة ميسرة، بل من أكثر سور الجزء أثرًا في القلب؛ فهي لا تقتصر على أحكام الطلاق، بل تحمل معاني تربوية وإيمانية عميقة.

فلنستعن بالله، ونجدد النية أن يفتح علينا، وينفعنا بما نتعلم، ويرزقنا العمل بالعلم.

معلومات السورة ومحاورها

سورة الطلاق مدنية بالإجماع.

وتدور السورة حول ما يلي:

(1) أحكام الطلاق وما يترتب عليه من أمور.

(2) ثمرة الالتزام بأحكام الله، وعاقبة من استقام والتزم بها؛ إذ وعده الله أن يجعل له مخرجًا.

(3) أحكام العدة: كيفيتها، وبيان كيفية احتسابها، وحكم المرأة التي لا تحيض؛ كالكبيرة في السن أو الصغيرة التي لم تبلغ بعد.

(4) أحكام السكنى للمرأة، وأحكام النفقة على الحامل، والنفقة على المرضعة.

(5) ضرورة طاعة الله ورسوله، والتحذير من مخالفة أمر الله، وبيان الجزاء لمن يلتزم بالصالحات، وبيان المنّة بإرسال النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق ١١]

(6) ذكر حسن عاقبة المؤمنين، وأن الفوز بالجنة أعظم رزق.

(الآية 1)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

هذا النداء يوضح مقام النبي صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه عند الله، فهو لا يُخاطب إلا بلقب النبوة أو الرسالة، فبدأ الله بالنداء احترامًا لمقامه صلى الله عليه وسلم، فلم يُنادى "يا محمد"، بينما نودي الأنبياء بأسمائهم مباشرة.

وصية النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء
كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بالنساء قبل موته:
"اتقوا الله في النساء"
وكان يوصي بما ملكت أيما نكم، ويقول:
"إني أخرج حق الضعيفين: المرأة واليتيم"

بيان سبب خطاب النبي في حكم الطلاق
يقول العلماء: الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام ويكون تبعاً لعامة المؤمنين، إلا إذا دل دليل على أنه
خاص بالنبي فقط، كما في سورة الأحزاب:
﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ
عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا
لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠]
أي أن بعض الأحكام خاصة بالنبي، كأن يتزوج بأكثر من أربعة، أو الزواج بدون ولي أو مهر، بمجرد
موافقة المرأة نفسها، وهي خصوصية له دون أمته.
فإن كل أمر يؤمر به النبي صلى الله عليه وسلم يشمل المؤمنين، ما لم يثبت دليل الخصوصية.
من تشريف المرأة في الإسلام
أن الله سبحانه وتعالى حين بين أحكام الطلاق خاطب النبي صلى الله عليه وسلم، تنبيهاً لعظم
الأمر، ومراعاةً لحال المرأة المطلقة، وإلزاماً للرجال بالحزم في تنفيذ هذه الأحكام؛ لأنها من الأمور
التي تثقل على النفوس.

كثرة الأمر بالتقوى في السورة
ذكر الأمر بالتقوى في سورة الطلاق أربع مرات في الصفحة الأولى:
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾
وسبب التكرار لأن الحديث عن الطلاق، وهو موطن اختبار حقيقي فليس كل أحد يتقي الله فيه،
فكثير من الناس يلتزمون بالأحكام الشرعية والسنن عند الزواج؛ لأنه وقت فرح وموافقة للهوى.

أما في الطلاق فإنه يخالف الهوى فيثقل على النفس، وهنا تظهر التقوى الحقيقية، وقد يشق على الرجل أداء الحقوق كاملة، وكذلك المرأة قد تميل للانتقام. ويأتي التأكيد دلالة على أن هذه الأحكام لا يلتزم بها إلا أهل التقوى، فالطلاق يكشف معادن الناس، ويظهر حقيقة علاقتهم بالله

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾

أي: طلقوهن وهن مستقبلات العدة، في وقت تبدأ فيه حساب عدتها مباشرة.

قال تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

أي: ثلاث حيضات، وعدة المطلقة تُحسب بالحيضات على الراجح من أقوال أهل العلم.

أحكام الطلاق:

أولاً: الطلاق المشروع؛ أن يطلق الرجل زوجته في طهرٍ لم يجامعها فيه أو وهي حاملٌ قد استبان حملها، وهذا هو المقصود بقوله تعالى:

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾

أي: في الوقت الذي تستقبل فيه المرأة عدتها مباشرة.

فإذا طلقها في طهرٍ لم يجامعها فيه، بدأت العدة من أول حيضةٍ بعد الطلاق، دون إطالة أو ضرر، فإذا انتهت الحيضات الثلاث انفصلت عنه.

ثانياً: الطلاق المحرّم (البدعي) وهو نوعان:

1) الطلاق في الحيض.

2) الطلاق في طهرٍ جامعها فيه، لأن فيه إطالة للعدة وحتى لا تقع المرأة في إشكال حول عدتها.

يحرم على الرجل أن يطلق زوجته وهي حائض؛ وذلك لأن:

الحيضة التي وقع فيها الطلاق لا تُحسب من العدة.

ثم يأتي طهرٌ، لا يُحسب كذلك.

ثم تبدأ الحيضة التالية، ومن هنا يبدأ العدّ.

فيؤدي ذلك إلى إطالة مدة عدتها بغير حق، وفيه إضرار بها.

رسالة السورة للطرفين

للمرأة: تفهمي طبيعة هذه مرحلة الحيض، واحتسبي الأجر في الصبر عليها، ولا تحملي الزوج ما يثقل عليه.

للزوج:

فالزوجة في الحيض ليست كحالها في الطهر، فتحلّ بالصبر. خفف عنها الأعباء، تجاوز عن بعض الأمور، ولا تتخذ أي قرار بالطلاق في هذه الفترة حفاظًا على البيت.

الحكمة من تحريم الطلاق في الحيض

تجنب إطالة العدة بلا سبب، حماية المرأة من الضرر، منع التسرع والانفعال، إعطاء فرصة للتهديئة والمراجعة، ضبط أمر الطلاق بالتقوى والانضباط، منع اختلاط أمر الحمل إن وُجد.

الحالات التي يجوز فيها الطلاق في أي وقت

المرأة غير المدخول بها.

المرأة التي لا تحيض، مثل الصغيرة أو الآيسة من المحيض.

اتفق العلماء على حرمة الطلاق البدعي (في حيض/نفاس/طهر جامعها فيه) وإثم فاعله.

اختلف العلماء في وقوع الطلاق في الحيض على قولين:

القول الأول لا يقع لأنه بدعة محرمة، ورد في الشرع استنادًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ"

فالطلاق مردود لا يقع.

القول الثاني: يقع مع الإثم، وهو الأقوى استنادًا لحديث عبد الله بن عمر رضي عنه.

عن ابن عمر أنه طلق زوجته وهي حائض فسأل عمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

"مره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء."

"مره فليراجعها"

تدل على وقوع الطلقة، مع إثم المطلق، ووجوب إرجاعها.

"ليتركها حتى تطهر"

ثم انتظار طهر الحيض الذي وقع به الطلاق.

"ثم تحيض وتطهر"
الطهر من الحيضة الثانية.
ثم إن شاء أمسك بعد
يعني إرجاع الزوجة إلى عصمته.
وإن شاء طلق قبل أن يمس
فإذا كانت في طهرها الثاني طلقها قبل الجماع.
وفيها دليل أنه: لا يجوز للرجل أن يطلق امرأة في طهر جامعها فيه.
هذه الأحكام خاصة بالطلقة الأولى والثانية فقط.

أما الطلقة الثالثة، فإذا وقعت في حيض أو طهر بانت المرأة بينونة كبرى، وتصبح محرمة عليه، لا
تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.

حكمة الشرع في تنظيم الطلاق
الشرع يضع قيوداً على الطلاق رحمة وحماية لكلا الزوجين، ويجبر الزوج على الانتظار حتى الطهر
التالي، فتكون فرصة لتصحيح الأمور، والتفكير ملياً، ليأخذ قراره بعقلانية وللحد من الطلاق
الاندفاعي.

الالتزام بالمدة وحكمة الصبر
الفترة بعد الطهر تمنح الزوج فرصة للتفكير والهدوء وإصلاح الأمور قبل وقوع الطلاق الفعلي.
أثر الالتزام بالشرع على حالات الطلاق
الالتزام بالضوابط الشرعية يقلل وقد يمنع كثيراً من حالات الطلاق غير الضرورية
الطلاق يجب أن يكون قراراً مدروساً وعقلانياً بعد مراجعة النفس، واستشارة أهل الخبرة والعلم،
الاستشارة، وحساب العواقب، لا اندفاعياً أو عاطفياً.
الشرع يضع قواعد لضبط الطلاق وحماية الأسرة، ليحول أي رد فعل عاطفي سريع إلى قرار
عقلاني.

اتخاذ القرار أثناء الغضب ممنوع؛ والواجب الانتظار حتى تهدأ النفس ثم التصرف بعقلانية.
قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان"

وقوله صلى الله عليه وسلم:

"لا تغضب"

أهمية سؤال أهل العلم قبل الطلاق

من قواعد استقرار البيوت أن يستشير الزوج العلماء قبل الطلاق، وليس بعده، لمعرفة الاستشارة الصحيحة والأحكام الشرعية، والعواقب والنتائج المترتبة على الطلاق، ليكون القرار مبنياً على الشرع.

لذلك لا يُرجع إلى من يتساهل في أحكام الشريعة، بل إلى العلماء الثقات.

الالتزام بالعدة وحسابها

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾

أي احسبوا العدة بدقة؛ فالعدة تُحسب بالحيضات، لذلك يجب على المرأة معرفة حيضها وعلامات طهرها.

أهمية تعلم أحكام الحيض، للمرأة والرجل.

ولا يجوز التلاعب بالعدة، فلا تدّع المرأة انتهاء الحيضات قبل تمامها، ولا تكتم حملًا،

لقوله تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾

أي: التزموا بتقوى الله في الطلاق.

﴿اللَّهُ رَبَّكُمْ﴾

جمع الله بين لفظ الجلالة وصفة الربوبية لتعظيم الأمر والتأكيد على معرفة خطورة المسألة واتباع أحكام الله بدقة.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾

أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾

يجب على المرأة المكوث في بيت الزوجية، يُحمل على الطلقة الأولى والثانية، فإذا انتهت العدة، افترق الزوجان.

وقال العلماء: نُسب البيت إليهن لأنهن المنتفعات به.

مدة العدة:

إذا كانت المرأة حاملاً، فإن عدتها تكون إلى انتهاء الحمل.

إذا كانت لا تحيض ولا تحمل، فعدتها ثلاثة أشهر.

جاء التعبير القرآني: ﴿مَنْ بَيَّوتَهُنَّ﴾ ترقيقاً لقلب الزوج، ليشعر أن طردها ليس من حقه، فهذا البيت موطنها الذي تعيش فيه وتدبر شؤونها، ولو لم يكن ملكاً لها قانوناً. فلا يجوز له أن يطردها، ولا أن يأمرها بالذهاب إلى أهلها، ولا يجوز لها أن تذهب من تلقاء نفسها، ولا لأهلها أن يأخذوها.

الحكمة من بقائها بعد الطلاق

حرصاً على بقاء الأسرة، وإعطاء فرصة حقيقية للمراجعة والصلح، فقد يهدأ الغضب، ويعيد كل طرف التفكير، وقد يدرك الزوج تسرعه، أو تسعى الزوجة للإصلاح.

بقاء الزوجة بصفة كاملة أثناء العدة

تبقى المرأة في بيتها بصفة زوجة كاملة، فلها حقوق الزوجة، ولزوجها ما يثبت له من حقوق، بما في ذلك المعاشرة.

وقد اختلف العلماء: هل الجماع يُعد رجعة أم لا؟ لكن الأصل أن المرأة ما دامت في العدة فهي زوجة.

وهذا من حكمة الشرع؛ وقد يكون سبباً للإصلاح والرجوع بدلاً من الفراق النهائي. ولا تخرج الزوجة إلا لحاجة معتبرة، ولو خرجت يجب عليها المبيت في بيتها.

قاعدة في المشكلات بين الزوجين

الأصل عدم التدخل في مشكلات الزوجين إلا إذا طُلب ذلك، فما بينهما من خصوصية وتفاهم لا يدركه من هو خارج العلاقة، فقد تبدو المشكلة كبيرة للآخرين، لكنها قد تكون قابلة للحل بينهما، لما بينهما من معرفة سابقة وعفو متبادل. لقوله تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]

فإن لم يطلب أحدهما الإصلاح، فالأولى تركهما، وإن تدخلت فلتكن كلمتك طيبة موجزة، وذَكَرْ كلاً منهما بالفضل بينهما.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾

يباح لكم إخراجهن وليس لهن الامتناع إذا ارتكبن فاحشة.

والفاحشة هي الذنب العظيم، وليس الزنا فقط، بل غيره من الذنوب الفاحشة، فيجوز إخراجها إذا ثبتت خيانة الزوجة بعلاقات محرمة، أو مراسلات فاحشة، أو إرسال صور محرمة، أو أي سلوك مشين.

وقال بعض العلماء: إن من الفاحشة المبينة أن تكون الزوجة بذينة أو سليطة اللسان أو تعتدي على زوجها أو أهله بالضرب.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

هذه المسألة ليست خاضعة للأهواء فحرية المؤمن تقف عند حدود الله، وليست في تجاوز الشرع.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾

أي: الرجعة، أي رجوعاً ومصالحة.

الآية عظيمة تفتح باب الرجاء في أشد لحظات الاضطراب، حيث يختلط الخوف بالحيرة، فبعد الطلاق يكون الإنسان مشتتاً ومثقل القلب، فتطمئنه الآية أن التدبير بيد الله، وأن الفرغ ممكن. إذا رأيت الأمور بعد سعيك تسير خلاف مرادك فتعلق بهذه الآية.

الآية الكريمة دعوة لتفويض الأمر لله والثقة في تدبيره، حيث تشفي الحزن وتدفع لترك التفكير المفرط في الهموم.

وهذا الوعد معلق بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾

تيسير الله بعد الطلاق

فمن وقف عند حدود الله في طلاقه، جعل الله له مخرجاً من ضيقه، ويسر له أمره، ورزقه من حيث لا يحتسب، إما برجعة مباركة أو بعوضٍ خير، وأغناه من سعته، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]

ولعل الطلاق خير لك يقيق من شر أكبر، ويصرف الله عنك شراً لا تعلمه، فلا تشغل بالك بكيفية الفرغ، وإذا لم تسر الأمور كما تشتهي.

ثق بالله، فالألم ليس النهاية، وما اختاره الله فيه خير ورزق أفضل، فلا عسر يدوم.

(الآية 2)

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ ۚ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

قال العلماء بالإجماع: إن قوله تعالى ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربت العدة على الانتهاء، وترجيح هذا المعنى بدليل قوله تعالى بعدها:

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ الإمساك لا يكون إلا أثناء العدة.

﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ تأتي على معنيين:

إما: قاربن الانتهاء، وهو المقصود.

أو: وصلن بالفعل إلى النهاية.

وورد ذلك المعنى في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَآيَةَ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ نِعْمَتٌ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]

المعنى هنا: وصلن إلى نهاية العدة؛ بدليل أنه يخاطب الولي ألا يمنعها من الزواج.
﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾

أي: إذا أردت إرجاعها، فليكن ذلك بنية الإكرام والإصلاح، وليس بقصد الإضرار.
فلا يجوز أن يُرجعها ليؤذيها، أو ليطيل زمن العدة، ثم يطلقها مرة أخرى تلاعبا.
وتكون الرجعة بكل لفظ يدل عليها، كأن يقول: راجعتك، أو رددتك، أو أرجعتك.
هل الجماع يُعد رجعة؟

عند الأحناف منهم أبو حنيفة: الجماع، بل حتى اللمس بشهوة أو المداعبة، يُعد رجعة ولو لم يتلفظ بها؛ لأن فعله يدل على إرادة الإرجاع.
وعند الجمهور (الشافعية والمالكية، وقول عند الحنابلة): لا يُعد الجماع رجعة إلا إذا نوى به الرجعة، حتى لو لم يتلفظ.

وهذا القول أحوط؛ فمن جامعها ناوياً بذلك إرجاعها، عُدَّت رجعة.

حذّر الله من أن يتلاعب الرجل بصلاحياته كالقوامة والطلاق، فقد شرعا لضبط الحياة الزوجية، لا للعبث، بل قائما على التقوى والإصلاح.
معنى المفارقة بالمعروف

الانفصال مع الالتزام بحقوق الزواج، مثل الشبكة والمهر، فيدفع الرجل المؤخر ويعيد للمرأة ممتلكاتها الخاصة، كما تلتزم المرأة باحترام حقوق الزوج دون إساءة أو استغلال كالشتم والضرب والإهانة، دون فضح أو إفشاء للعيوب.

ولا يجوز ذكر ما حدث بين الزوجين بطريقة تُسيء للطرف الآخر، لأن كل شخص له خصاله التي قد يقبلها غيره في المستقبل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"من قال في أخيه ما ليس فيه أدخله الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال"

الكذب على الآخرين يعرض صاحبه للعذاب، ويشمل ذلك الكذب بين الزوجين.

قال الله تعالى:

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

الرجوع أو الطلاق يجب أن يكون مع مراعاة الفضل والحقوق، وإعطاء المرأة المتعة كجبر خاطر عن الألم النفسي الناتج عن الطلاق.

المتعة في الطلاق هي مبلغ مالي أو هدية يقدمها الزوج لمطلقاته، تعويضًا عن الأضرار المادية والمعنوية.

المطلقة ليست معيبة؛ فقد يكون الطلاق نتيجة اختلاف طبائع أو عدم توافق، وليس عيبًا شخصيًا. ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾

بوجود رجلين من المسلمين، يتصفان بالاستقامة والعدالة، وذلك لضمان الحقوق، وتوثيق التصرفات، ومنع النزاعات والإنكار، وعد الطلقات.

والأمر في الآية يُحمل عند جمهور الفقهاء على الندب والاستحباب لتوثيق الحالة وليس للوجوب. شهادة الشهود على الطلاق والرجعة مطلوبة من الرجال فقط، ولا يشترط دون النساء.

ويفضل تسجيل كل طلقة في قسيمة الزواج مع توقيع الشهود.

مثلاً إذا طلق الرجل زوجته ثم راجعها دون إشهاد، ثم توفي، قد يثور خلاف حول الميراث وهل ثبتت الرجعة أم لا.

حتى لو لم يُشهد، فإن الطلاق والرجعة صحيحتان.

سُئل عمران بن حسين عن الرجل يطلق المرأة ثم يرجعها ولم يُشهد على طلاقها أو رجعتها، فقال: "طلقت لغير سنة وراجعت، أشهد على طلقها وعلى رجعتها، ولا تعد".

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾

يمثل هذا الأمر الإلهي وجوب القيام بالحق ونصرة العدل، حتى لو كانت الشهادة ضد النفس أو الأقربين، مع الحفاظ على الأمانة والإنصاف، وليس لأجل المحاباة أو المنفعة الشخصية.

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾

أي إن الإيمان باليوم الآخر ينعكس على السلوك؛ فالمؤمن لا يُخفي حقًا ولا يظلم أحدًا. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت".

الالتزام بالخير والصراحة نتيجة الإيمان بالآخرة ويضمن عدالة الحياة الزوجية حتى بعد الطلاق.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أكبر آية في القرآن فرجًا هي: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

من اتقى الله في الطلاق وفق أمره، يفتح الله له مخرجًا، ويرزقه، وقد يمنحه زوجًا أو زوجة صالحة، أو من يكفل أولاده، ويخفف عنه ألم الفراق.

وكل هذه النعم مرتبطة بالتقوى.

التقوى هي الأساس : التقوى تحتاج توكلًا على الله، وسعيًا بالحلال، وثقة بأن الله سييسر لنا المخرج؛ فمن يصبر يفتح الله له باب رزق من حيث لا يحتسب فلا يجوز طلب الرزق بالحرام بحجة الوصول إلى الحلال لاحقًا، فاتقِ الله أولًا، ثم يأتي المخرج والرزق من عنده. كلما زادت التقوى، زاد الفرج والرزق، والعكس صحيح. لا تطلب الرزق من الله بمعصيته

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "لو أطبقت السماء على الأرض، لجعل الله للمتقين فتحات يخرجون منها، ألا ترون قوة الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾" انتبه قد يبتليك الله وييسر الحرام اختبارًا، فمن صبر وتركه لله، فتح الله له أبواب الخير والفرج، فالتقوى مفتاح النجاة في الشدة والرخاء، في الدنيا والآخرة. كتوبة كعب بن مالك رضي الله عنه، حين صبر على الحق ولم يكذب مع النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل المنافقون، بل اختار التقوى ونزلت فيه آيات في سورة التوبة. (الآية 3)

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا

خمس مبادئ في الآية:

- 1) من يتق الله يجعل له مخرجًا.
 - 2) يرزقه من حيث لا يحتسب.
 - 3) من يتوكل على الله فهو حسبه.
 - 4) إن الله بالغ أمره.
 - 5) قد جعل الله لكل شيء قدرًا.
- ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

يسبب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر، ولا يعلم. أنواع الرزق :

فليس كل الرزق مال بل الولد الصالح، والزوج الصالح، وسكينة القلب، والبركة في الحياة. كما فعلت السيدة هاجر عليها السلام، حين بحثت عن الماء بين الصفا والمروة ولم تجده، فجاءها الفرج بفضل الله عند قدم إسماعيل. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

أي أن التوكل على الله يضمن للإنسان أن الله سيكفيه وييسر له ما لم يتوقعه. قال أحد السلف: "إني لأعلم معصيتي في خلق دابتي وامراتي، ولكني أستغفر الله وأتوكل عليه".

أي أن من عرف معصيته وابتعد عنها، وتمسك بالتقوى، فتحت له أبواب الفرج والرزق من حيث لا يحتسب.

من أصلح أمره مع الله صلح حاله.

﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

أي أن الله كافٍ له، فمن سلم أمره لله ولم يجعل أمله في الناس، فاز وربح، فالتوكل على الله هو طريق الوصول إلى الغاية، حتى عندما تضيق الأسباب من حولك.

لم يذكر الله تعالى ثواب المتوكل تحديداً، تعظيماً لأجره، وجعل نفسه عز وجل كافياً للمتوكل قال النبي صلى الله عليه وسلم حين دخل الغار مع أبي بكر رضي الله عنه:

"ما ظنك باثنين الله ثالثهما"

سيدنا موسى عليه السلام أمام البحر، عندما انقطعت كل الأسباب، قال الله له:

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرِهِ﴾

فما أَراده الله سيكون، لا يمنعه أحد، سواء كان الأمر متعلقاً بإصلاح بيت أو حدوث الطلاق أو أي مسألة أخرى.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾

قدر الله ثابت، فلا يجوز للإنسان أن يسعى إلى الرزق بالحرام، فما أَراده الله سيكون، فالمعصية سببٌ في محق البركة.

قد يتأخر الفرج لحكمة، كما حدث مع الأنبياء عليهم السلام:

يوسف عليه السلام: جاءه الفرج بعد سنوات من البلاء.

يعقوب عليه السلام: صبر صبراً طويلاً حتى تحقق وعد الله.

موسى عليه السلام: عاش سنوات في مدين قبل الفرج.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤُسُونَ﴾ [طه: ٤٠]

﴿يَمْؤُسُونَ﴾ [طه: ٤٠]

وتأخر النصر على النبي صلى الله عليه وسلم.

التأخير ليس إهمالاً، بل تقديرٌ وحكمة ستوضح لاحقاً.

الحياة تتقلب بين الفرح والحزن، ولا يدوم حال.

اتق الله واعمل بما تستطيع اليوم، وتوكل عليه، واترك النتائج؛ فستأتي في الوقت المناسب.

نسأل الله أن يوفقنا للتقوى، وييسر لنا أمورنا، ويجعلنا من المتوكلين عليه حق التوكل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

قَدْ رَسَدَ قَدْ سَمِعَ

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة الخامسة عشر



Alaa Hamdy

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

لقاء جديد مع تدبر جزء **قد سمع**، ومواصلة مدارس سورة الطلاق.

في اللقاء السابق تناولنا أوائل الآيات من السورة، وتأملنا عظمة التشريعات، وما فيها من رحمة بالزوجين بعد الطلاق، وحرص على حفظ الحقوق، ولا سيما حقوق المرأة. وقد ظهر ذلك جلياً في هذا الجزء كما

ظهر في سورة المجادلة وسورة الممتحنة، وسيؤكد لنا المعنى نفسه عند دراسة سورة التحريم. فلنتأمل في تشريع الله الذي كرم المرأة، وأنصفها، ومنحها حقوقها كاملة، ونحذر من الدعاوى التي تُشوّش على فهم الأحكام الشرعية أو تُحرّف مقاصدها.

(الآية 4)

﴿وَالَّذِي يَتَسَنَّ مِنْ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾

بعد بيان عدة المطلقة التي تحيض بثلاثة قروء جاء السؤال عن غيرها من النساء. سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد عن أبي بن كعب رضي الله عنه: يا رسول الله، فما شأن الكبيرة، والصغيرة، والمرأة الحامل؟ فنزلت الآيات.

أصناف المعتدة:

أولاً: الكبيرة التي يئست من المحيض أي بلغت سنّاً لا تحيض فيه. عدتها: ثلاثة أشهر هجرية.

ثانياً: الصغيرة التي لم تحض وهي التي لم تبلغ بعد. عدتها كذلك: ثلاثة أشهر.

ثالثاً: الحامل

عدتها: وضع الحمل.

﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾

تحتمل معنيين:

الشك في الحكم إن وقع في عدة هذه الأصناف، فبيانها: الكبيرة والصغيرة
ثلاثة أشهر، والحامل حتى تضع حملها.

الشك في حال المرأة نفسها:

كأن ترى دمًا بعد اليأس، فلا تدري أهو حيض أم استحاضة.

أو كانت تحيض ثم انقطع عنها الحيض عند الطلاق.

أو صغيرة نزل عليها دم ولا يُدرى أهو حيض.

فهنا يُحسم الأمر، وتكون العدة ثلاثة أشهر، لأن الأحكام تُبنى على اليقين لا على الشك.

﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾

وهذا دليل على أن من لم تحض قد تتزوج وتطلق، فتعد ثلاثة أشهر.

مسألة زواج من لم تبلغ

يجوز تزويج الصغيرة إذا كانت تطيق الزواج، ولا يُشترط البلوغ وحده، بل القدرة الجسدية وعدم الضرر.

فقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة بنت ست، ودخل بها بنت تسع؛ لأن الدخول

مرتبط بالقدرة والتحمل، لا بمجرد العقد.

الولاية تكليف وأمانة، والأب مؤتمن على مصلحة ابنته، فلا يزوجه إلا بما فيه خيرها وصلاحها.

الولاية على الصغيرة وحدودها في الشريعة

يجوز للأب عند جمهور الفقهاء أن يُجري عقد النكاح لابنته الصغيرة إذا رأى في ذلك مصلحة

ظاهرة، بشرط أن يكون أمينًا ناصحًا، وألا يترتب على ذلك ضرر.

أما الدخول بها فلا يكون إلا إذا بلغت حدًا تُطيقه وتكون مؤهلة له.

فلو كبرت ولم ترض بهذا الزوج، فلها إذا بلغت ووعت حقَّ النظر في أمر العقد، فإن لم ترضَ يجوز

لها طلب فسخه عند أهل العلم، حمايةً لحقها ودفعًا للضرر عنها.

وبذلك جاءت الشريعة وسطًا بين:

حق الولي في النظر لمصلحة ابنته، وحق الفتاة في القبول أو الرفض عند اكتمال أهليتها.

وقد أخذ هذا الحكم استثناسًا من قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾

بيّنت الآية عدّتهن بثلاثة أشهر، مما يدل على إمكانية وقوع الزواج والطلاق قبل البلوغ، مع بقاء

الضوابط الشرعية المعتمدة.

إن الشريعة قائمة على رفع الضرر، وكل صورة يترتب عليها أذى محقق أو استغلال ممنوعة شرعًا.

عدة الحامل

﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

وفيه دليل جواز طلاق الحامل، وتكون عدتها وضع الحمل، سواء وضعت بعد يوم، أو بعد تسعة أشهر.

ويجوز لها أن تتزوج بزواج آخر بعد انتهاء العدة، وإن أراد هو أن يعود إليها فلا بد من عقدٍ جديد، لأنه لا يملك رجعتها بعد انقضاء العدة.

مسألة عدة الحامل إذا مات زوجها

وقعت مسألة في عهد الصحابة:

امرأة حامل مات عنها زوجها، فما عدتها؟

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]

عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام.

لكن الآية الأخرى تقول:

﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

فسئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فأفتى بأن تعتد بأبعد الأجلين.

فإن كان وضع الحمل أبعد من أربعة أشهر وعشرة أيام، اعتدت به، وإن كانت الأربعة أشهر والعشرة أبعد، اعتدت بها.

لكن خالفه جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فقالوا: الحامل عدتها دائماً وضع الحمل، في جميع الأحوال.

ودليلهم حادثة امرأة تدعى سبيعة بنت الحارث الأسلمية، مات زوجها، فوضعت حملها بعد وفاته بأربعين يوماً فقط، ثم تزينت للخطاب، فأنكر الناس عليها.

فذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألته، فأذن لها بالزواج بعد وضع حملها، فتزوجت رضي الله عنها.

فهذا الحديث نص في المسألة، وعليه استقر قول جمهور الصحابة والفقهاء: أن عدة الحامل في جميع الأحوال وضع الحمل، سواء كان الطلاق أو الوفاة.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾

فجاء الأمر بالتقوى في سياق هذه الأحكام؛ لأن كثيراً منها يتعلق بأمرٍ خفية لا يطلع عليها إلا الله؛

فمسألة الحمل لا يعلمها يقيناً إلا المرأة نفسها؛ فقد تُخفي الحمل لتستعجل انتهاء العدة، أو

تَدَّعي عدم الحمل.
لكن الله تعالى قال:

﴿وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]
ربط الله الحكم بالتقوى؛ لأن المرأة في مسألة الحمل هي مصدر البيان والإخبار. ثم بيّن أن التقوى سببٌ للتيسير.

فالتقوى ليست معنىً تعبدياً مجرداً، بل لها أثر في حياة الإنسان كلها؛ في أحواله العامة، وسائر شؤونها. إنها منهج حياة يجلب التيسير والبركة.

يا من تعثرت أموره، وزاحمته الهموم، هذا هو المخرج بين يديك: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، هذا وعدٌ معلق على شرط؛ فلا تطلب الوعد قبل أن تحقق الشرط؛ لا تقل: يارب يسّر لي أولاً ثم أتقيك، أو لما أجد الحلال سأترك الحرام، أو إذا استقرت حياتي سألتزم بالصلاة. قدّم التقوى أولاً، ثم يأتيك وعد الله بالتيسير فكلما عظمت تقواك، ازداد نصيبك من اليسر، وتكفير السيئات، ورفعة الأجر.

(الآية 5)

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾
قد تستثقل النفوس بعض الأحكام، تسأل: لماذا ألزم بهذا؟ ولماذا لا يكون لي الحق كاملاً دون التزام يقابله؟

فكل واحد ينظر إلى حقوقه وينسى واجباته. والحقيقة أن الشريعة لا تُبنى على الأهواء، بل على الحكمة والعدل. فما شرعه الله إنما شرعه لصالح العباد، لا لمنفعة تعود إليه سبحانه؛ فهو الغني عن خلقه، وهم المحتاجون إلى هدايته وتشريعِهِ.
حكم الله أحسن من كل تصوراتنا القاصرة.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾
تحفيزٌ بليغ: فبعد وعد التيسير والرزق في الدنيا لأن النفوس جبلت على حب الدنيا، جاء الوعد الأعظم في الآخرة: تكفير السيئات وتعظيم الأجر.
الآية تُقرر أن صلتنا بالله وتقوانا له هي مفتاح التوفيق في الدنيا والفوز في الآخرة.

﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾
أي يُعطيهِ أجراً عظيماً على عمل قد يكون يسيراً؛ فالله شكور، يُعطي الكثير على القليل.

في سياق هذه الآيات أربعة وعود معلّقة بشرط التقوى، فكل من يتقي الله ينال:
المخرج من المصاعب.
الرزق من حيث لا يحتسب.
التيسير في الأمور.
تكفير السيئات وتعظيم الأجر.
والمفتاح هو التقوى.

هذه المنظومة الربانية تحمي البيوت وتحفظ الحقوق، وتحقق العدل، فقد جمع الله بين صلاح الدنيا والآخرة في علاقة واحدة، هي التقوى وطاعته.
حاجة الأفراد والأمم إلى شرع الله
إن كثيراً من الفساد نشأ من الإعراض عن حكم الله، ومن الاعتماد على القوانين الوضعية التي لم تُصلح أحوال الناس كما يُظن.
فقد كثرت الجرائم، وازدادت المشكلات الأسرية، وارتفعت نسب الطلاق، وتفككت البيوت، وتشرد الأبناء.

والمأمل يرى أن صلاح الأحوال إنما يكون بالرجوع إلى شرع الله، فهو وحده الكفيل بإقامة العدل وتحقيق الاستقرار. فالتقوى لا تختص بالأفراد فحسب، بل تشمل الأمم كذلك؛ فمتى التزمت الأمم بشرع الله يسّر الله أمرها وأصلح شأنها.

(الآية 6)

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُتْصِفَقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ أُؤْلِيَتْ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾

أي حيث سكنتم.

أحكام السكنى والنفقة للمطلقة

المطلقة الرجعية

وهي من طلّقت طليقة أولى أو ثانية.

فهذه تبقى في بيت الزوجية مدة العدة، ولا يجوز إخراجها، ولا يجوز لها الخروج إلا لحاجة معتبرة.
وقد ذكر العلماء أنها لا تخرج حتى بإذن الزوج، لأن بقاءها في البيت ليس بإرادته، بل بأمر الله

تعالى.

ويجب على الزوج لها: السكنى، والنفقة بقدر استطاعته.

المطلقة قبل الدخول

لا عدة لها أصلاً، وبالتالي لا سكنى لها ولا نفقة بعد الطلاق.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]

المطلقة طلاقاً بائناً (الطَّلَاقُ الثَّالِثُ)

إذا طَلَّقَهَا الطَّلَاقُ الثَّالِثُ بَانتَ مِنْهُ بَيْنُونَةُ كِبَرَى، وصارت أجنبية عنه، فلا تعتد في بيت الزوجية، وليس لها نفقة أو سكنى.

وقد ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه جاءت إليه فاطمة بنت قيس الفهرية، وقد طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص الطَّلَاقُ الثَّالِثُ، فاشتكت إليه أنه لا يرسل لها نفقة. فقال عليه الصلاة والسلام: "ليس له عليك لا نفقة ولا سكنى".

وفي رواية:

"انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى على الزوج ما كانت له على زوجته رجعة، فإن لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى".

ومع ذلك، يبقى من حقها المؤخر كاملاً، وكذلك المهر كاملاً، إضافةً إلى الشبكة إن وجدت. ويُستحب أن تُعطى متعة زائدة تقديراً للعشرة وجبراً لخاطرها، وهذا من باب الاستحباب لا الإلزام.

﴿مَنْ وَجَدَكُمْ﴾

أي بحسب قدرته وطاقته.

﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾

لا يجوز للزوج أن يستغل ما مُنح له من صلاحيات للإضرار بالمطلقة أثناء العدة، وعليه أن يؤدي لها حقوقها كاملة، وأي تهديد أو إساءة يُعدّ مخالفةً لأمر الله؛ كأن يضيق عليها في السكن، أو يمتنع عن النفقة، أو يطيل العدة بقصد الإضرار (في الرجعية).

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

الآية تتعلق بالمطلقة غير الرجعية إذا كانت حاملاً؛ إذ يجب على الزوج أن يوفر لها السكنى والنفقة طوال مدة الحمل، بما يليق بحالها، سواء أكان ذلك في مسكن مستقل أم في منزلها. فإذا وضعت حملها، نُظِرَ في أمر الحضانة وفق أحكام الشرع؛ فإن كانت الأم هي الحضانة، استمر توفير السكنى والنفقة بما يحقق مصلحة الأبناء ويكفل رعايتهم.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾

للمرضعة أجره بالمعروف، أي بما جرى به العرف من غير ظلم ولا مغالاة، وفي الآية دلالة على تقدير الشريعة للمرأة ودورها في تربية الأبناء، ووجوب احترام جهدها سواء زوجة أو مطلقة. على الزوج أن يقدر ويُنصف من ترعى أبنائه، ويقدر عملها ويؤدي حقها كاملاً من غير تقصير.

﴿وَأْتِمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾

الأمر بالتشاور والتفاهم بالمعروف، وتنظيم شؤون الأبناء بعد الطلاق.

الحضانة: حق للأم

الأصل أن الأم أحق بحضانة الصغير، مع مراعاة مصالحه وتوفير الرعاية المناسبة له. إلا لو تنازلت الأم عنها.

عند بعض الفقهاء يُخير الصغير إذا بلغ سنّاً معينة، وقيل عند السابعة، بين البقاء مع أمه أو الانتقال إلى أبيه.

الالتزام بالمعروف والإحسان منهج رباني: رغم الانفصال، تبقى مصلحة الأبناء مسؤولية مشتركة. يجب رعايتهم ومتابعة أحوالهم والحفاظ على تواصل طبيعي، امتثالاً لأمره تعالى.

﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسَتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾

أي تضايقتم واختلقتم.

قد ترفض المرأة الإرضاع لعدم استطاعتها أو بسبب حالتها النفسية.

نفقة الابن كلها على الأب، حتى أجره الرضاعة. فإذا اختلف الزوجان في أمر الرضاعة فلا تُلْزَمُ الأم بها، ولها أن تطلب أجراً على إرضاع ولدها، فإن لم تُرد فليس عليها حرج. وحينئذٍ يجب على الأب أن يستأجر مرضعة ويدفع أجرها، كما قال الله تعالى: ﴿فَسَتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى﴾.

رحمة الله بالولد أعظم من كل رحمة، فقد أمر الله بأن يُؤْتَى للطفل مرضعة إذا رفضت الأم إرضاعه.

أَيْنَ الْمُتَّهَمُونَ بِظُلْمِ الْإِسْلَامِ لِلْمَرْأَةِ فَلْيَنْظُرُوا لِهَذِهِ الْحَقُوقِ الرَّفِيعَةِ فِي الْإِسْلَامِ.
لَا تَجْعَلُوا الْأَوْلَادَ سَاحَةً لِلصَّرَاعِ، فَالْوَاجِبُ مِرَاعَاةَ مَصْلَحَتِهِمْ، لَا اسْتِغْلَالَهُمْ وَسِيلَةً لِلانْتِقَامِ.

إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ

الأصل أن ما كَلَّفَ الله به، داخل في وسعك وقدرتك؛ لأنه لا يَكَلِّفُ نفسًا إلا بما تطيق. فلا يصح أن يقال: لا أستطيع القيام لصلاة الفجر، أو لا أقدر على الالتزام بالحجاب، أو سأجمع الصلوات بلا عذر.

لا يُحتج بالعجز عن ترك المعاصي كالتدخين أو سماع المحرمات؛ فما دام الله أمر بالفعل أو بالترك فأنت عليه قادر، المشكلة في ضعف الإيمان والعزيمة. فقوم إيمانك، واستعن بالله، ولا تتذرع بالعجز فيما أمرك الله به.

ولكن إن خرج الأمر عن القدرة حقًا وعجز الإنسان فعلاً، فهنا له حل ومخرج شرعي.

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

وعد الله: بعد العسر يسراً؛ إنها من أرجى آيات القرآن، ومن أجملها، لأنها جاءت عامة. قالوا: لو اجتمع عليك يأس العالم لبددته هذه الآية.

قالوا: لن يغلب عسر يسرين. فقد ذكر الله اليسر مرتين، وذكر العسر مرة واحدة، في قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]

العُسْر في الآيتين واحد؛ لأنه جاء مُعَرِّفًا بـ(ال)، أما اليُسْر فجاء نكرة، فدلَّ على تعدد اليسر وتكرره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ﴾

فجاء بالسین الدالة على القرب والسرعة، إشارة إلى أن الفرج قريب، وأن زوال الهم أسرع مما يظن العبد.

لا تستسلم للأفكار السلبية ولا لوساوس الشيطان، فوعدُ الله أحق بالتصديق.

أربع آيات لا يبالي معهن صاحبهن:

قال عامر بن عبد قيس: "أربع آيات من كتاب الله إذا تذكرتهن لا أبالي على ما أصبحت وعلى ما أمسيت"

1. ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]

2. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]

3. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

4. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. [هود: ٦].

في حياتنا كم من عُسرٍ طال أمده، ثم انقلب يُسرًا في لحظة! وكم من ضيقٍ خنق الصدور، ثم أعقبه فرجٌ أدهش القلوب! إنها سُنَّةُ الله التي لا تتبدل: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

الدنيا لا تثبت على حال؛ فالحزن إلى انقضاء، والفرح إلى ابتلاء، وكل شيء عنده بقدر: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرَهُ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾

يتعاقب العسر واليسر لتُعرف النعم، فلو دام الرخاء ما عُرِفَت قيمته، ولو استمرت العافية لطغى الإنسان، كما قال تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۖ لَإِطْفَءٍ * أَنْ رَّأَاهُ اسْتَغْنَى ۖ﴾ [العلق: ٧.٦]

الوعد بالفرج ليس لكل أحد، بل لمن اتقى الله ولزم أمره؛ فمن صدق مع الله يسر له أمره، وعوّضه خيرًا مما فقد، كما قال سبحانه:

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا آخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]

فالزم التقوى، ولا يحملنك الألم على التفریط؛ فإن الخسارة كل الخسارة في ترك أمر الله، أما من تمسك به فلن يضيعه الله أبدًا.

(الآية 8)

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾

يضرب الله مثلًا بأممٍ وقرى عظيمة عتت عن أمره، أي تكبرت وتجاوزت حدوده، فأهلكها.

فإذا كان هذا حال أُممٍ كاملة، فكيف بفرد يستهين بأمر الله، خاصة في قضايا الطلاق حيث يكثر الظلم وتجاوز الحدود؟ من يقول: "لن أمكنه من رؤية أولاده"، أو "لن أعطيها نفقتها"، أو يتحايل لأكل الحقوق، فقد عتا عن أمر ربه. فلا تتحدّ الله، فإن من أهلك أممًا قادرٌ على كل أحد.

لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا﴾

عذابًا شديدًا منكرًا بالغًا.

والآية تحمل تحذيرًا شديدًا للمؤمنين من مخالفة حدود الله والتمرد على أوامره.

(الآية 9)

﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

الوبال جزاء الذنب.

العاقبة نهاية الأمر

تكرار الحديث عن الوبال والعاقبة ليس عبثاً؛ لأن الذي يفترى في الطلاق لا ينظر إلى العاقبة، إنما ينظر إلى المكسب القريب، ويظن أنه حقق انتصاراً حين حرم زوجته حقها أو ضيق عليها، فيسعد بلحظة تفوق عابرة. لكنه لا يفكر في العاقبة وما يترتب على فعله لاحقاً؛ فقد يفقد البركة والتوفيق في حياته، ويذوق آثار اختياره سنواتٍ طويلة، نادماً على مكسبٍ قليل خدعه بريقه، فإياكم والظلم. أيها الزوج، إذا ظننت أن إرهاب زوجتك في المحاكم نصر لك، فتذكر قول الله تعالى:

﴿فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

لا تنخدع بالنتيجة القريبة، فالقيمة الحقيقية فيما تنتهي إليه الأمور، لا فيما يبدو في بدايتها. المقصود أن تؤدي الحق ولو كان في نفسك ضيق وغيظ، فتقول: يا رب، لأجلك فعلت، ومن أجل تقواك صبرت. ثق أن الله سيرضيك في النهاية. إن ثقل عليك أداء الحق الواجب، فأذه طاعةً لله، وقل: رضيت بحكمك يا رب، وأرجو وعدك: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ فهذه هي العاقبة الحسنة. أما الظلم والتعدي فمآله الخسارة والعذاب

(الآية 10)

﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هذا هو الأمر الخامس بالتقوى في السورة.

أي: يا من تعقلون كلام الله وتندبرونه، اتقوا الله وارضوا بحكمه. إن كنت مؤمناً حقاً، فالتسليم لأمر الله واجب، ولو خالف هواك. إنما شأن المؤمن السمع والطاعة والرضا، وليس الاعتراض والجدال.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

دعوى لتقوى الله، وامثال أوامره، واجتناب نواهيه، تأدباً بما أنزل في القرآن الكريم من ذكر، والتحذير من عاقبة مخالفة أمره.

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ اختلف العلماء في ﴿ذِكْرًا﴾ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القول الثاني: القرآن.

القول الثالث: يعني شرفاً وعزاً. فالعز والشرف في الالتزام بشرع الله. كما في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]

هذه الأحكام التي قد تغفل عن حكمتها، فيها عز الأمة وشرفها، وعز المرأة والرجل.

(الآية 11)

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾

تبيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم وغايته؛ الإخراج من الظلمات إلى النور.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾

إن الذي جاءك بهذه الأحكام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، الرحيم والحريص عليك، لا يريد لك إلا الخير. فالآيات مبينات واضحات لتدلك على الحق وتوضح حكم الله، فلا يختلط عليك الأمر، ولتكون نعمة ورحمة لك.

﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

لا بديل عن شرع الله؛ كل ما سواه ظلمات. من يفضل القانون الوضعي أو غيره يبتعد عن النور، وينغمس في المصائب والدماء والطلاق والفتن. فلا نرجع للظلمات.

التحفيز الأعلى: جنات تجري من تحتها الأنهار

﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾

أي يرضى بقدر الله وحكمه وينفذ الصالحات.

جنات وليست جنة واحدة، تجري من تحت قصورها الأنهار، ولا يخرج منها أبدًا.

كل ما تنازلت عنه وصبرت عليه في الدنيا ينسى عند دخول الجنة. فلنصبر اليوم لننال نعيمها، ونحمد الله على تقوانا.

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾

ذكر أحسن الرزق لأن الطلاق لا يقتصر على الحقوق فقط، بل يشمل الإحسان والتعامل الحسن أيضًا.

فلا يقتصر الأمر على أداء الحقوق فقط، بل يزيد بالإحسان والفضل.

(الآية 12)

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

بين الله تعالى قدرته وعظمته ليرهب الناس ويعرفوا قدر المعصية

السماء الدنيا التي نراها ليست سوى أدنى طبقات الكون، فهناك السماء الثانية والثالثة حتى السابعة، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم استوى الرحمن على عرشه، وكلهم محمولون بقوة الله ولطفه. وأنت أيها الإنسان شيء يسير في ملك الله، فكم من ظلم صغير يُحاسب عليه.

﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوهُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

الأمر الشرعي التكليف والأحكام.

والأمر القدري بالأرزاق والإحياء والإماتة والضر والنفع.

الغاية من الخلق واضحة: عبادة الله وحده، وما خلق يدل على قدرته.

ما يحفظ استقامتنا في العبادة هو التوحيد والإخلاص له.

﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

التقوى تقوم على العلم بأن الله يعلم كل شيء، فلا مهرب من طاعته.

من خلال التأمل في خلق السماوات والأرض نصل إلى أن نعلم يقيناً أن الله على كل شيء قدير وأنه

أحاط بكل شيء علماً.

فإذا أيقننا بكمال قدرته وعلمه، علمنا أنه قادر على البعث، وأنه وحده المستحق للعبادة، فنصل إلى

الغاية التي من قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

فمعرفة قدرة الله وعلمه تقودنا إلى توحيده وعبادته وحده بلا شريك.

التقوى والتوحيد أساس العبادة.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قَدْ رَسَيْتَ قَدْ سَمِعْتَ

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة السادسة عشر



Al-Ahliya Publishing House

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

أهلاً ومرحباً بكم في لقاء جديد، وهو اللقاء قبل الأخير من لقاءات هذه الدورة المباركة: دورة مدرسة قد سمع.

لقد تجولنا في سور هذا الجزء المبارك، وتعلمنا منه معاني عظيمة؛ فرأينا حكمة الشريعة، وتعرفنا على مكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند الله، كما وقفنا على معاني الولاء والبراء، وتعرفنا على سير الصحابة الكرام، ورأينا أيضاً مكانة المرأة في الإسلام. وقد جمع هذا الجزء الكثير من هذه المعاني التربوية والإيمانية.

تذكير بسورة الطلاق

في اللقاء السابق تحدثنا عن سورة الطلاق، وبيّنا أنها من أرقى سور القرآن، ومن أكثر السور تأثيراً في ترقيق القلوب، على خلاف ما يتصوره البعض عنها. لو أردنا أن نسميها اسماً آخر لسميناها سورة التقوى؛ لكثرة ما ورد فيها من الدعوة إلى التقوى. وبعد سورة الطلاق في جزء قد سمع تأتي سورة التحريم.

تعريف بسورة التحريم

سورة التحريم سورة مدنية بلا خلاف.

موضوعات سورة التحريم

تعرض سورة التحريم نموذجاً لنظام البيت المسلم، وتبين دور الرجل والمرأة في التربية داخل الأسرة. كما تؤكد مسؤولية المسلم عن نفسه وأهله، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

1) عتاب النبي صلى الله عليه وسلم وخصوصية بيته: تبدأ السورة بعتاب رقيق للنبي لامتناعه عن العسل (أو عن جاريته مارية في بعض الروايات) إرضاءً لبعض زوجاته، وبيان أن الله أحل له ما يطيب له.

سبب نزول الآيات وذكر العلماء في ذلك قولين:

القول الأول أن بعض زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أردن أن يُنْفَرْنَ من العسل الذي كان يشربه في بيت زينب بنت جحش

القول الثاني إنهن أردن أن يُنْفَرْنَ من إتيان مارية رضي الله عنها، وهي من ملك اليمين، فكنَّ يَغْرُن من ذلك.

(2) الأمر بالتوبة: أمر الله زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالتوبة من العودة إلى مثل هذا الفعل، وبيّن أن الله قادر على أن يبدل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجاً خيراً منهن.

(3) مسؤولية الأسرة في التربية: تأكيد مسؤولية المسلم عن تربية نفسه وأهله، وفي ذلك بيان لمسؤولية الرجل خاصة في رعاية أهل بيته وتربيتهم.

(4) يضرب الله مثلاً بالملائكة في طاعتهم الكاملة، وذلك دعوة للالتزام بطاعة الله.

(5) بيان عاقبة الكافرين ومصير من كفر وضل، والدعوة إلى التوبة وبيان فضلها.

(6) تذكر السورة نماذج مختلفة من النساء:

نساء ضلن رغم قربهن من الأنبياء

مثل امرأة نوح وامرأة لوط؛ فقد كانتا زوجتين لنبين، ومع ذلك لم ينفعهما هذا القرب بسبب كفرهما.

نموذج المرأة الصالحة: وهي امرأة فرعون، التي عاشت في بيئة فاسدة لكنها ثبتت على الإيمان، فصارت من خير نساء الدنيا، وبنى الله لها بيتاً في الجنة. وفي ذلك دليل على أن الإنسان يُقَوِّم بعمله وإيمانه لا بنسبه.

وختمت السورة بذكر مريم عليها السلام كنموذج أعلى في الإيمان والطاعة، وفي ذلك دعوة إلى استقامة المرأة، وبيان أن عزّها الحقيقي يكون في عبادة الله سبحانه وتعالى.

(الآية 1)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

دلالة النداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾

بيان شرف النبي صلى الله عليه وسلم وقدره عند الله، فيناديه بصفة النبوة حتى عند العتاب. قد ينادي الناس غيرهم بالألقاب عند الإكرام ويتركونها عند العتاب، أما الله سبحانه فينادي النبي صلى الله عليه وسلم بصفة النبوة والرسالة حتى في العتاب.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم على نفسه شيئاً بسبب غيره الزوجات. ورد في ذلك روايتان :

الرواية الأولى: حديث العسل: روى البخاري في كتاب الأيمان والنذور عن عبيد بن عمير

قال:

سمعت عائشة رضي الله عنها تزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً. فتواطأت أنا وحفصة على أن آيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل له: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل النبي صلى الله عليه وسلم على إحداهما فقالت له ذلك. فقال: "لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له." وفي رواية:

"بل شربت عسلاً ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحداً." وكان الكلام مع حفصة رضي الله عنها. فنزلت الآية.

كان من عادة النبي صلى الله عليه وسلم أن يمرّ على نسائه بعد صلاة العصر ليطمئن عليهن، حتى لو كانت الليلة لواحدة منهن مثل عائشة أو حفصة. وكان هذا جائزاً؛ لأن العدل الواجب بين الزوجات يكون في المبيت، أما الزيارة في النهار فكانت جائزة دون حرج.

لما رأت السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم يطيل المكث عند زوجته السيدة زينب بنت جحش، غارت لشدة حبها له، فلما علمت أنها كانت تُطعمه عسلاً. اتفقت مع السيدة حفصة على أن تدبرا أمراً ليمتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن شرب هذا العسل، فكانت الخطة أن تقول كل منهما للنبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله عليها: "إني أجد منك ريح مغافير".

(والمغافير: مادة صمغية حلوة الطعم، كريهة الرائحة).

فلما دخل على إحداهما (وهي عائشة على الأرجح) قالت له ذلك، فقال: "بل شربت عسلاً عند زينب"، فلما دخل على حفصة قالت له مثل ذلك، فقال لها نفس الجواب، تأثر النبي صلى الله عليه وسلم بكلامهما، وحلف ألا يشرب العسل عند زينب، وقال لحفصة: "لا تخبري أحداً بذلك". وهنا نزلت الآية عتاباً للنبي صلى الله عليه وسلم، وتبين أنه لا ينبغي تحريم ما أحله الله، حتى لو كان ذلك لإرضاء الزوجات، ثم شرع بعدها كفارة اليمين التي حلفها.

الغيرة بين الزوجات طبيعية، لكنها تُحل بالورع والوعي والتصرف الرشيد. راعى النبي صلى الله عليه وسلم مشاعر زينب، وتصرف بلطف حتى لا يتأثر شعورها. الرواية الثانية:

كانت مارية من ملك اليمين للنبي صلى الله عليه وسلم، فحين رآته زوجاته أنه يأتيها، وخاصة حفصة رضي الله عنها غارت، فحرّم النبي عليه الصلاة والسلام إتيان مارية وحلف على ذلك إرضاءً لهن.

الجمع بين الروایتين

ذكر العلماء احتمالين في الجمع بين الروایتين:

الطريقة الأولى: اعتماد الرواية الأصح، وهي رواية عائشة مع قصة زينب والعسل، عند عامة العلماء، وقد ذكرها ابن كثير ولم يذكر الرواية غيرها.

الطريقة الثانية: احتمال أن الحديثين (العسل وملك اليمين) وقعا معًا، فارتبط سبب نزول الآية بالحديث معًا.

والأرجح والله أعلم أن سبب النزول هو قصة العسل مع زينب.

الاهتمام بالطيب والنظافة للرجل والمرأة مستحب ومطلوب لإظهار المحبة والاحترام داخل البيت. السيدة خديجة رضي الله عنها كانت الأفضل مطلقاً بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. كانت عائشة تحرص على قرب النبي منها فتراقب بقاءه مع زوجاته بدافع الحب والغيرة، لكنه صلى الله عليه وسلم كان يتعامل بحكمة وذوق رفيع، مراعيًا مشاعر الجميع.

مكانتهما في قلب النبي صلى الله عليه وسلم

السيدة عائشة كانت الأحب إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تليها زينب، بدليل قولها عنها: "هي التي تساميني من زوجاته".

أي تقاربني في المنزلة عنده.

فضل زينب بنت جحش

سأل النبي زينب في حادثة الإفك:

يا زينب ما تعلمين عن عائشة؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع.

حكمة النبي صلى الله عليه وسلم وتغاضيه عن هفوات زوجاته بدافع الحب، وصبره على غيرتهن، مما يعكس أخلاقه العالية ورقته في معاملة أهله.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾

كان النبي صلى الله عليه وسلم، رغم مكانته يسعى في إرضاء زوجاته مما يدل على كمال خلقه.

مواساة الله لنبيه وتطبيب خاطره

كان الله سبحانه يواسي نبيه صلى الله عليه وسلم ويجبر خاطره ويؤنسه ويدافع عنه، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم تعظيمًا لمقامه وتطبيبًا لقلبه.

فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

"يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك."

وقد وردت في ذلك آيات كثيرة منها:

قال الله تعالى له:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]

قال تعالى:

﴿قَاصِرٌ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]

إذا كان الله عز وجل يرضي نبيه، فكيف بنا نحن؟

مع عظمة مقام النبي صلى الله عليه عند الله، إلا أنه كان شديد التواضع، يصبر على غيره زوجاته ويسعى لإرضائهن بلطف، فهنيئاً لمن اقتدى به وجعل حسن معاملة أهله وإرضاءهم من أولوياته. السيادة الحقيقية لا تعني التسلط بل تعني حسن الخلق والرفق بالزوجة، وإكرامها ومعاملتها بلطف والسعي لإرضائها، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك ما ورد عن عائشة إن النبي صلى الله عليه وسلم إذا مرضت إحدى زوجاته لم يطلب منها شيئاً، بل كان يرقئها بالمعوذات، ويقوم بخدمة أهله.

وكان عليه الصلاة والسلام يتحمل الكثير من المواقف، حتى إذا خاصمته أو اختلفن معه سامحنه وتجاوز عنهن.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها، فقال لها: "هل عندنا من طعام؟" فقالت: "لا"، فقال: "إني صائم."

قد يتحمل الزوج من زوجته ما لا يتحمله من غيرها، لأن العلاقة بينهما تقوم على المودة والصبر والتغافل.

من كمال خلقه صلى الله عليه وسلم أنه كان مثلاً عظيماً في سعة الصدر، وحسن المعاملة، والحلم والرفق. ومن ذلك:

رغم ما وقع من غيره عائشة رضي الله عنها، بقيت لها مكانة عظيمة عنده، وقد قال:

"فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"،

وكان إذا سُئِلَ: من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة. وهذا يدل على عظيم حلمه صلى الله عليه وسلم وتجاوزه عن الزلات اليسيرة، ولين جانبه، وحسن معاشرته لأهله

وأيضاً عفوه عن حاطب بن أبي بلتعة حين همّ بإفشاء سر النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في سبب نزول سورة الممتحنة، فعفا عنه لأنه شهد بصدقاً. ففي الحديث القدسي قال الله تعالى: "اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم". رغم ما وقع من أمهات المؤمنين إلا أنه لا ينقص من فضلهن شيئاً.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

بيان لسعة مغفرة الله تعالى وتجاوزه عن ذنوب عباده. قدرة النبي صلى الله عليه وسلم على تهدئة المشاعر الثائرة، واحتواء الأزمات الطارئة وعلاجها، وتفادي الأضرار المحتملة.

(الآية 2)

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حلف يميناً، فسمح الله تعالى له بالتحلل منه بإخراج الكفارة، والعودة لما يحب.

عَظَمَ مكانة النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب تعظيمه

إن مقامه صلى الله عليه وسلم عند الله عظيم، ولذلك شرع الله للمؤمنين آداباً خاصة في التعامل معه تعظيماً له وحفظاً لحقه، ومن ذلك ما ورد في الآيات الكريمة: قال تعالى:

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]

عتاب إلهي لهما، وإعلان الله نصرته لرسوله، حيث ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ تعني مالت قلوبكما عن الصواب، وبيّن أن الله وملائكته والمؤمنين ناصرين لنبهه. وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]

حُرمة رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم، كما حدث عندما تجادل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ورفعا أصواتهما بحضرته. وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]

لما أطل بعض الصحابة الجلوس في بيت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الطعام فتأذى من ذلك. قدر النبي صلى الله عليه وسلم عند الله لا يعلمه إلا الله.

(الآية 3)

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾
أي أن النبي صلى الله عليه وسلم أسر إلى بعض زوجاته حديثاً، وأوصاها بعدم إفشائه.

التعامل مع المشكلات الزوجية بهدوء وخصوصية

من أهم أساليب حل المشاكل بين الزوجين أن يكون الحوار هادئاً وعلى انفراد بعيداً عن الناس. أن يكون العتاب بين الزوجين فقط دون إشراك الآخرين والتحدث أمام الأطفال أو الخوض في التفاصيل.

أن يتم الحوار بأسلوب لطيف كما كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع زوجاته. التدقيق المفرط في الأخطاء يثير المشاكل، بينما الرفق والاحترام والتغاضي عن الصغائر يعمر البيت ويثبت العلاقة.

العتاب أمام الناس أو الأهل خطأ شائع؛ لأنه قد يحول النقاش إلى مشكلة أكبر.

كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً في الرقي واللفظ حتى في العتاب؛ فحين أسر إلى بعض أزواجه حديثاً ثم أخبرن به، أطلعه الله على ذلك، كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾

فعاتب بلطف؛ بين بعضه وأعرض عن بعض، لم يغضب أو ينفعل، بل أخبر حفصة وزوجاته رضي الله عنهن بالتفاصيل بشكل إجمالي، دون الغوص في كل التفاصيل الدقيقة.

﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

أوحى الله سبحانه وتعالى له بكل التفاصيل

يعلّمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن الإصلاح والحوار الهادئ أقوى من الغضب والانفعال. الاعتدال في العتاب والمروءة

من آداب التعامل بين الزوجين وأي خلافات عامة عند العتاب، عدم ذكر كل التفاصيل، بل يكفي بعرض الموضوع إجمالاً للتصحيح دون إعادة إشعال المشاعر السلبية، فالهدف هو حل المشكلة لا تعقيدها.

وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عند عتابه لحفصة رضي الله عنها في حادثة الغيرة، فاكتمى بعرض الموضوع إجمالاً دون ذكر كل التفاصيل، مروءة منه.

وكذلك عندما أذى إخوة يوسف يوسف عليه السلام بكلماتهم وأفعالهم، أسرّها في قلبه ولم يردّ عليهم، ولما أتيح له العتاب سامحهم قائلاً:

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]

قال معاوية رضي الله عنه: "ثلث العقل في الفطنة، وثلثا العقل في التغافل."

وقال الإمام أحمد: "تسعة أعشار العافية في التغافل."

إن التغاضي والتغافل أساس الحياة الناجحة فالحياة مليئة بزلات صغيرة يومية؛ التسامح عنها يحفظ العلاقات ويجعل البيت مكاناً سعيداً وآمناً، لذلك فلنتذكر المواقف الإيجابية، ونحسن الظن.

قاعدة في الحياة:

قال أبو تمام: "ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي"

أي أن المتغاضي محبوب ومقدّر.

من تجاوز عن الناس تجاوز الله عنه، وستره.

ليس كل التغافل محمود؛ فالتغافل ليس التجاهل، بل التركيز على الأمور الجوهرية وتجاوز الزلات البسيطة والصغائر، الحزم مطلوب عند الأمور المؤذية ولا بد من الموازنة بين التسامح والحزم لمنع الكبت والانفجار النفسي.

يجب أن يكون الإنسان واعياً ويميز بين التغافل والكبت:

التغافل: غض الطرف بنية حسنة، مع المروءة والشهامة للحفاظ على المودة والود والحفاظ على الكرامة.

الكبت: كتم المشاعر وتجاهلها دون حلها، مما يؤدي إلى تراكم الانفعالات وانفجارها لاحقاً.

إذا كان الموضوع مؤذياً أو يمس الكرامة، فلا بد من أخذ رد فعل مناسب، وكلما تم التعامل مع الأمور في بدايتها، كانت أسهل

(الآية 4)

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾
﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

أي زاغت ومالت.

قال العلماء: مالت لأنهن أحبين شيئاً يكرهه النبي صلى الله عليه وسلم، أي فارقن النبي فيما يميل إليه.

اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الميول والسلوك واجب، والانحراف عن ذلك يُسمى زاغاً وميلاً. إلا أن ما حدث كان ميلاً مؤقت بسبب الغيرة والحب بين الزوجين في أمور بسيطة يُسامح فيها. ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ إذا ظهر خلاف أو مظلمة ضد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله يدافع عنه، وتنزل الملائكة وجبريل وصالح المؤمنين لنصرته، ليعظم مكانته ويظهر محبتنا واتباعنا لسنة. صلاحك بقدر نصرتك للنبي صلى الله عليه وسلم ودفاعك عنه.

﴿ظَهِيرٌ﴾

عونٌ له وذخيرته.

(الآية 5)

﴿عَسَىٰ رَبُّهُٓ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُٓ أَرْوَاحًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَلْبَتْ تَلْبَتٍ عِبْدَتٍ سَخِيحَتٍ ثَيِّبَتٍ وَأَبْكَارًا﴾

عسى: من الله واجبة، من باب بيان العزة والقدرة، وهو يفعل ذلك، هذا يُظهر عزة الله الملك القادر.

عسى: لو قالها الناس تفيد الترجي، أي رجاء الله تعالى وقدرته على تبديل الأحوال. فإذا حدث بالفعل وتفاقم الموضوع، فإن الله يأمره بأن يطلقكن. ويبدله الله زوجاتٍ خيراً منكن، وقد تابت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

قصة أخرى:

عندما وسَّع الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قليلاً في الرزق، بدأت بعض زوجاته يكثرن من طلب أمور الدنيا وزينتها. وكان ذلك يشقُّ على النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه كان يفضل العيش على الكفاف ويكثر من الصدقة. فأنزل الله تعالى قوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
[الأحزاب: ٢٨-٢٩]

اعتزل النبي صلى الله عليه وسلم زوجاته مدة شهرًا، بسبب ما وجد في نفسه، وكان هذا الاعتزال أسلوبًا هادئًا لمعالجة الخلاف دون أذى أو إساءة، حتى تهدأ النفوس ولا تتفاقم المشكلة. بعد ذلك تابت زوجات النبي صلى الله عليه وسلم جميعًا، فلم تتكرر هذه المواقف، ولم يُطلق أيًا منهن.

صفات المرأة الصالحة:

﴿مُسْلِمَتٍ﴾: أي منقادة لله، خاضعة لطاعته، لا تجادل في الحجاب أو مسائل الشرع من ميراث أو غيره، فالجدال في مثل هذه الأمور يتعارض مع الإسلام الحقيقي.
﴿مُؤْمِنَتٍ﴾: عقيدة سليمة، إيمان قوي بالله واليوم الآخر، يعرفن عقيدة أهل السنة والجماعة ويعيشنها.

﴿قَانِتَةٍ﴾: المواظبات على العبادة، لا تقتصر على الصلوات والصوم، بل تمتد إلى ذكر الله وأعمال الخير، دائمات في طاعة الله.

كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]

﴿تَتَّبِعَتِ﴾: السريعة في التوبة إذا أخطأت، فالمسلم لا يتوقع منه الكمال، ولكن السرعة في التوبة تعيدها إلى مكانتها الصالحة.

قد ترفع التوبة الصادقة مكانة الإنسان بعد الخطأ، كما حدث مع الصحابي كعب بن مالك رضي الله عنه بعد تخلفه عن غزوة تبوك ثم توبته الصادقة.

﴿عَبْدَتِ﴾: أي كثيرات العبادة.

أهمية العبادة للمرأة:

العبادة ترقق القلب وتعين المرأة على أداء دورها في الاحتواء والرعاية داخل الأسرة والمجتمع، فتجعلها أكثر صبرًا ورحمةً وحسن خلق، فالعبادة تُهذب القلب وتوازن العلم، وتزيد اللطف والتواضع والرحمة.

﴿سَبَّحَتِ﴾: صائمات باتفاق السلف، الصوم من العبادات الميسرة للمرأة خاصة إذا كانت في بيتها.

﴿تَتَّبِعَتِ وَأَبْكَارًا﴾: من باب التوسعة على النبي صلى الله عليه وسلم.

الثيب: هي التي سبق لها الزواج. البكر: هي التي لم يسبق لها الزواج.

كل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كن ثيبات إلا عائشة رضي الله عنها كانت بكرًا، فالعبرة في الزواج الدين والصلاح.

موافقات عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقرآن وهو الذي قال فيه رسول الله:

"لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر"

فكان رضي الله عنه من أكثر الصحابة فهمًا للقرآن، وقد وافق رأيه الوحي في عدة مواقف، منها:

يوم أشار على النبي صلى الله عليه وسلم لاتخاذ مقام إبراهيم مصلي فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

[البقرة: ١٢٥]

قوله للنبي صلى الله عليه وسلم: "هلا أمرت نساءك بالحجاب فإنهن يدخلن عليهن البر والفاجر"، فنزلت آية الحجاب في سورة الأحزاب.

قوله للنبي عليه الصلاة والسلام: "يارسول الله وددت لو أنزل الله أمرًا شافيًا في الخمر"، فنزل تحريمها.

وقوله في شأن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنِيَتٍ تَتَّبِعُنَّ عِبَادَٓتِ سَاحِجَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وهذا يدل على عمق فقهه وقوة بصيرته في فهم الدين.

سؤال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما صغيرًا عندما أراد أن يسأل عمر عن الآية المتعلقة بزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد تردد، وجد فرصة أثناء السفر للحج فسأله: من المرأتان اللتان قال الله فيهما: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾؟ فأجابه عمر رضي الله عنه بأنهما: عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر.

ومن مواقف عمر رضي الله عنه:

أنه لما غضب النبي صلى الله عليه وسلم من بعض زوجاته واعتزلهن في مكان يُسمى "المُشربة" وأشيع طلاق النبي صلى الله عليه وسلم لهن، ذهب عمر رضي الله عنه ليطمئن عليه ويؤنسه فقال:

"يا رسول الله، كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبه نساؤهم، فتعلمت نساؤنا من نسائهم. وكان منزلي في دار أمية ابن زيد بالعوالي، فغضبت يومًا على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ إن رسول الله صلى

الله عليه وسلم تراجع أزواجه وتهجره إحداهن إلى الليل، قال: فانطلقت ودخلت على حفصة فقلت: أترجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: نعم، وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر. أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم؟ فإذا هي قد هلكت. لا تراجعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك أجمل وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك. " فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم سأله: "أطلقت نسائك؟" فأجابته: "لا".

وفي بعض الروايات الطويلة، قال عمر رضي الله عنه: "يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ فإن كنت طلقتهن، فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك". ثم سأل النبي صلى الله عليه وسلم: "أطلقت نسائك؟" فأجاب: "لا". فقام إلى باب المسجد ونادى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلق نساءه.

إظهار فقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحرص الصحابة على فهم القرآن ومعرفة أسباب نزوله، وبيان مكانة الصحابة في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم وحماية المجتمع من الشائعات.

(الآية 6)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

احفظوا أنفسكم بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، واحفظوا أهليكم بما تحفظون به أنفسكم، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله. أي لا يمنع التسامح أو اللطف الإنسان من تربية أهله بالحق. إن إهمال تربية الأبناء والزوجة يؤدي إلى عاقبة النار. فمسؤولية الأب والزوج هي التوجيه والرعاية، وليس مجرد تلبية الرغبات، وتركهم دون تعليم أو توجيه قد يوقعهم في الشهوات ويعرضهم للضرر.

من صور عقوق الآباء لأبنائهم إهمال تعليمهم أمور دينهم، وتركهم يعتادون المعصية دون توجيه أو تقويم، بل قد يصل الأمر إلى معاونتهم على اتباع الشهوات وتيسير أسبابها لهم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

لن ينصلح الظل والأصل أعوج، فلا تظلم نفسك وغيرك.
﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ﴾

الناس: البشر الذين يَرمون فيها.
الجارَةُ:

قيل: إنها الأصنام.

وقيل: حجارة الكبريت التي تزيد النار اشتعالًا، كما ورد عن بعض الصحابة.
﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

أي ملائكة غلاظ وشداد على الكفار بأمر الله، لا يعصون الله ما أمرهم، مثالًا لل صالحين في الطاعة التامة.

يجب على الإنسان أن يقتدي الملائكة في الطاعة ويسترشد بسلوكهم في الطاعة ويجتنب المعصية.
استحضار الملائكة: كما يستحيي الإنسان من فعل المعصية أمام الناس الصالحين، فعليه أن يستحيي أكثر من الملائكة الذين لا يفارقونه ويكتبون أقواله وأعماله بأمر الله. وهذا الاستحياء يدفعه إلى ترك الذنوب والحرص على الطاعة.

(الآية 7)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
أي أن الاعتذارات لن تُقبل يوم القيامة، وكل إنسان مسؤول عن أعماله.

بهذا نكون قد انتهينا من الصفحة الأولى بما تيسر، نسأل الله التوفيق والسداد، ونسأله أن يتقبل منكم صالح الأعمال.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

قَدْ رَسَلَهُ قَدْ سَمِعَ

بشرح المهندس علاء حامد

ملخص المحاضرة السابعة عشر

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

مرحبًا بكم في اللقاء الأخير من دورة "قد سمع"، نسأل الله القبول والتوفيق. تناولت الدورة سور الجزء المبارك بما فيها من أخلاق وعقيدة وأحكام وتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم وتكريم للمرأة.

تم بحمد الله شرح بداية سورة التحريم، وبيان قصة عتاب الله للنبي صلى الله عليه وسلم وللسيدة عائشة وحفصة رضي الله عنهما، وبيان لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم وعظيم قدره، وتوجيه المؤمنين للاهتمام بأهليهم وتربيتهم لحمايتهم من النار، وبيان حال الكفار يوم القيامة.

مشهد اعتذار الكفار يوم القيامة

(الآية 7)

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

انعدام فرصة الاعتذار لله يوم القيامة، ومحاولات الكفار اليائسة للنجاة، كلها باءت بالفشل ومنها:

الإنكار والكذب: فيحلفون أنهم لم يكونوا مشركين، قال تعالى:

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

فيُفْضَح كذبهم.

وفي آية أخرى قال تعالى:

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

[الأنعام: ٢٤]

قال الله تعالى عنهم:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ

الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]

الاعتراف: وطلب الرجوع للدنيا ليعملوا صالحًا، لكن هذا الطلب يُرفض.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠٦-١٠٧]

قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا

مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]

فتكون نهاية محاولاتهم:

﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

ثم يحاولون مخاطبة مالك خازن النار:

﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]

وأخيراً يطلبون من خزنة جهنم تخفيف العذاب أو الموت:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]

فيقال لهم:

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

[غافر: ٥٠]

يصل حال الكافر أن تكون أمنيته فقط تخفيف يوم واحد من العذاب! ليس الخروج، ولا الموت، بل مجرد التخفيف.

الحياة ليست مجرد زمن نعيشه ما دمت حيًّا، فأنت تملك القدرة على الرجوع وتصحيح المسار؛ أما بعد الموت، فلا ندم ينفع ولا اعتذار يُقبل.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ"

وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضَرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَلَعَلَّه يَزْدَادُ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا فَلَعَلَّه أَنْ يَسْتَعْتَبَ".

أي: يعتذر العبد إلى الله سبحانه وتعالى.

(الآية 8)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

نداء إلى المؤمنين: ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله، وإلى ما يرضيه عنكم.

اجعل لك بعد هذه المحاضرة قراراً واضحاً: أن تتوب من ذنب، أو ترجع إلى الله.

يدعونا الله للتوبة ويحب أن يغفر لنا، بل ويفرح بتوبة العبد، فمهما أخطأت، إذا رجعت إليه بصدق،

يقبلك ويعفو عنك

معنى التوبة النصوح

أي: توبة خالصة صافية من الشوائب.

وأصل الكلمة من قول العرب: "نصحت العسل" أي صفّيته من الشوائب.

شروطها:

1. أن تكون التوبة خالصة لوجه الله تعالى.
 2. الندم على ما فعل من الذنوب والمعاصي.
 3. الإقلاع التام عن الذنب.
 4. العزم الصادق على عدم العودة للذنب.
 5. ردّ الحقوق لأصحابها إذا كانت هناك مظالم.
 6. الإكثار من الأعمال الصالحة تكفيرًا للسيئات.
- فإذا تحققت هذه الشروط، كانت التوبة نصوحًا؛ وأي نقص في ذلك يجعل التوبة غير كاملة.

التوبة غير النصوح:

هي توبة غير خالصة لله أو غير صادقة، يشوبها نقص في النية أو العزم.

ومن أمثلتها:

- التوبة لأجل الناس (رياءً أو طلبًا للمدح).
- ترك الذنب لعدم القدرة عليه، لا كراهية له.
- ترك المعصية لأسباب دنيوية مثل: الخوف، المصلحة، أو الفقر، أو المرض.
- من يترك الذنب مؤقتًا، فلو زال السبب عاد إليه.
- علامة الندم الصادق ألم القلب عند تذكر الذنب، وكثرة الاستغفار عند تذكره، ولا يفتخر به ولا يتلذذ بذكره.

من دلائل خلل التوبة:

- التلذذ بذكر المعصية أو التفاخر بها.
- الاستمرار في الذنب مع ادعاء التوبة.
- نية الرجوع للمعصية لاحقًا (توبة مؤقتة).
- عدم ردّ الحقوق لأصحابها.

خاتمة النداءات للمؤمنين جاءت بالتوبة

يُعد النداء في سورة التحريم آخر نداء لأهل الإيمان في ترتيب المصحف. فاللهم اختم لنا بتوبة صادقة قبل الممات.

وكانها رسالة ربانية ترافق المؤمن إلى آخر عمره:

مهما قصّرت، ومهما أذنبت، فباب التوبة لا يُغلق فاجعل خاتمتك توبة صادقة، لعلها تكون سبب نجاتك، وخاتمة أمرك.

المداومة على التوبة

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إني لأتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة."

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾

"عسى" في كلام البشر تفيد الرجاء، أما من الله فهي وعد محقق، ولذلك قال العلماء:

"عسى من الله واجبة"، أي متحققة الوقوع، ووعد من الله لمن تاب أن يغفر له.

إن الوقوع في الذنب وارد، لكن لا مكان لليأس مع التوبة المتكررة.

قال صلى الله عليه وسلم:

"كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون."

والله لا يملّ من المغفرة حتى يملّ العبد من التوبة.

قيمة الإنسان في توبته لا في عصمته؛ فيسارع بالرجوع عندما يخطئ، فليس أحد معصوم، بل حتى

الصالحون يخطئون، لكنهم لا يُصرون على المعصية.

﴿وَيَدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

فالله لا يكتفي بالمغفرة، بل يُكرم عباده بالجنة، التي هي أعظم من أعمالهم.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾

كرامة النبي والمؤمنين يوم القيامة، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم:

"اللهم لا تخزني يوم القيامة"

وكان يبكي خوفاً على أمته، وقد وعده الله عز وجل أن يرضيه في أمته ولا يسوءه، فالنبي عليه

الصلاة والسلام يشفع لأمته يوم القيامة، وقد استجاب الله عز وجل له.

والخزي هو خزي يوم القيامة، أي العقوبة؛ فطالما أنه لا يُخزي، فهذا يعني أنه لا يُعذبهم.

التفريق بين مقام الأنبياء:

إن هذه الدعوة المباركة شبيهة بدعوة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]

فعندما ذكر الله سبحانه وتعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام، كان التركيز على الدعوة نفسها.

أما عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان التركيز على استجابة الدعوة واقتران المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم في عدم الخزي فيه تشریف وتعظيم لهم، وهذا يظهر الفرق بين مقامه صلى الله عليه وسلم وبقية الأنبياء. تعد الآية وعدًا إلهيًا لبيان الفوز العظيم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾

يُعْطَى الْإِنْسَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ.

في بداية المشهد يوم القيامة، يكون المؤمنون والمنافقون معًا، لأن الله سبحانه وتعالى يمكر بالمنافقين ويجزيهم على نفاقهم، فيجعلهم مع المؤمنين، فيظن المنافق أنه قد نجا كما كان مستترًا في الدنيا، ثم يحدث تمييز الصفوف: يتقدم المؤمنون بنورهم ويبقى المنافقون في الظلمات ثم يضرب بينهم بسور، ويبدأ العذاب على المنافقين. حينها عندما يرى المؤمنون أن نور المنافقين قد انطفأ، يخافون ويقولون: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبغي للمسلم أن يُكثر من هذا الدعاء: "ربنا أتمم لنا نورنا".

هذا الدعاء يحمل رسالة عظيمة: أن هناك دائمًا المزيد من النور وأن الإنسان لا يكتفي بما وصل إليه وأن يطلب الأعلى دائمًا؛

فالقرآن نور: قراءته، وحفظه، وفهمه، والعمل به.

والصلاة نور: فأحسن صلاتك، وزد بالنوافل، وقيام الليل، وصلاة الضحى.

ومن أعظم الأنوار: الذهاب إلى المسجد لصلاة الفجر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"بشر المشائين في الظلم بالنور التام يوم القيامة."

فإن لم تكن محافظًا على صلاة الفجر في المسجد، فقل: "ربنا أتمم لنا نورنا"، داعيًا الله أن يهديك لذلك.

الشريعة كلها نور، بل الدين كله نور.

قال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾

[المائدة: ١٥]

نصيبك من النور في الآخرة هو على قدر نصيبك من النور في الدنيا.

وقد قيل: "لما سعوا وراء النور في الدنيا، فسعى بين أيديهم في الآخرة".

يكون النور على قدر: العمل الصالح، وصحة الاعتقاد.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾

الإيمان الصحيح، على منهج أهل السنة والجماعة، فكلما كانت العقيدة صحيحة: كان النور أعظم، ثم يزيد بقدر العمل الصالح. واحرص ألا تبتدع في الاعتقاد، أو في العمل، أو تقصر في الطاعات.
"وإذا استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل".

(الآية 9)

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾
جهاد الكفار يكون بعدة أنواع:

1. جهاد القلب: بإنكار كفرهم والبراءة منهم.
 2. جهاد اللسان: بدعوتهم إلى الله ونصحهم وبيان فساد معتقدهم.
 3. جهاد الحجة: بالمناظرة والرد على الشبهات.
 4. جهاد القلم: بالكتابة والتأليف والنصح.
 5. جهاد اليد (عند القدرة): وهو القتال في سبيل الله.
- أما جهاد المنافقين:

فهو يشبه جهاد الكفار، لكن لا يكون بالقتال (باليد)، وإنما يكون:

1. بالقلب: ببغض نفاقهم وعدم الرضا به.
 2. باللسان: ببيان باطلهم والتحذير منهم.
 3. بالنصح والتشديد: بنصحهم والإنكار عليهم عند الحاجة.
 4. بإقامة الحدود: إذا ظهر منهم ما يستوجب ذلك شرعاً.
- وذلك لأن المنافق غالباً سلاحه لسانه، فيواجه بما يناسبه.

كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَاحِبَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]
فالحل: بالتضييق والرد عليهم، وعدم تمكينهم، والتحذير منهم.

(الآية 10)

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾

القرب من الصالحين لا ينفع بدون عمل صالح.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه."

خطر الاغترار بالعلاقات: فلا يكفي صلاح من حولك، ومصاحبة الصالحين أو مجالسة العلماء دون عمل. بل لا بد من عملك أنت، فالصحبة الصالحة تنفع إذا صاحبها اقتداء وعمل.

﴿فَخَانَتْهُمَا﴾

بإجماع العلماء؛ ليس المقصود خيانة الفراش، أو العرض، فلم تزن امرأة نبي قط.

والخيانة هنا كانت في الدين، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يُنزه أنبياءه عن الأمور التي تقدر في مقامهم.

وفي هذا دليل على براءة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وأرضاها من حادثة الإفك، وقد برأها الله عز وجل، فقال تعالى:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦]

لا يبتلي الله نبياً بهذا، فقد تكون زوجته كافرة، لكنها لا تكون زانية.

ولهذا ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

"ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها في الدين."

وفي أثر آخر عنه أنه قال:

"خيانتها أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها، وأما امرأة لوط فكانت إذا ضاف لوطاً أحد خبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء".

حال امرأة نوح وامرأة لوط:

كان دورهما الإعانة على المعصية ونشرها، أي السعي لوقوع الفاحشة دون فعلها مباشرة.

امرأة نوح عليه السلام: كانت كافرة، تؤذي الدعوة بكشف المؤمنين وإبلاغ قومها عنهم.

امرأة لوط عليه السلام: كانت راضية بفاحشة قومها، وتدلل عليها، وتُخبرهم بقدوم الضيوف. إذ كانت الفاحشة بين الرجال.

كما قال لوط عليه السلام:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]

خطورة الرضا بالمعصية:

أن من يرضى بالمعصية كمن يفعلها؛ فليس شرطاً أن يفعل الإنسان المعصية ليأثم، بل يكفي أن يرضى بها أو يبررها.

فلا يفعل الحرام، لكنه يراه أمراً عادياً أو حرية شخصية، فيقع في خطر عقدي. كقبول بعض المعاصي المنتشرة والدعوة للاعتراف بها، دون فعلها، وقد كانت امرأة لوط كذلك: لم تفعل الفاحشة، لكنها رضيت بها، فهلكت. فالدلالة على المعصية كفعلها

ومن الأمثلة على ذلك:

أمٌ ملتزمة تلبس بناتها لباس التبرج.
أب لا يفعل الحرام، لكنه يرسل أبناءه إليه.
شخص لا يرتكب الفاحشة، لكنه يساعد غيره عليها.
إن خيانة العقيدة هي أعظم خيانة، كما وقع لامرأتي نوح ولوط.
قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]

دروس وعبر من القصة:

1. ينبغي للمرأة الصالحة أن تعين زوجها وتسانده على الحق، ولا تتخلي عنه، فإن تركه خيانة لميثاق الزواج.
2. لا يُغْتَرَّ بأمانة الكافر في المال أو المعاملات، لأنه خان أعظم أمانة، وهي أمانة الدين.
3. لا تتعجب من الخيانة قد يصدّم الإنسان بخيانة من أحسن إليهم، لكن هذه طبيعة بعض القلوب القاسية.
4. الهداية بيد الله قد تبذل كل جهدك لهداية من تحب، لكن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]
5. الابتلاء في الأسرة قد يكون الرجل صالحاً ويؤتلى بزوجته، أو العكس. فلا يلزم أن يكون ذلك بسبب تقصير.
6. الصبر على الابتلاء أجره عظيم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]
7. لا ينفع الإنسان صلاح غيره إن كان عمله فاسداً.

(الآية 11)

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

هي آسية بنت مزاحم، التي كانت مثالاً للثبات والإيمان رغم كفر زوجها، فقد كان من أعظم الطغاة، ومع ذلك آمنت، فصارت من أفضل نساء الجنة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"أفضل نساء الجنة: خديجة بنت خويلد، فاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم."

الظروف ليست مبرراً وعذراً فلا يُعذر الإنسان بفساد البيئة أو صعوبة الواقع، فالحق يُتبع في كل حال. وكان يوسف عليه السلام مثال ذلك؛ ثبت على دينه في بيئة فاسدة، في السجن والملك، حتى شهد له بالإحسان:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[يوسف: ٧٨]

من إيمان آسيا وسط الطغيان أنها لما رأت موسى عليه السلام رضيعاً وأخذته راجية للخير فيه: قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]

ولما علم فرعون بإيمان زوجته، اشتد غضبه وأمر بتعذيبها. فثبَّت يداها ورجلاها بالأوتاد، وترك تحت أشعة الشمس الحارقة في الصحراء. وكان يأتيها بين حين وآخر، يطلب منها أن تتراجع عن إيمانها، لكنها كانت ترفض بثبات، وفي أثناء ذلك، أكرمها الله بأن أرسل ملائكة تظللها، تخفيها عنها. ولما أصرت على إيمانها، أمر فرعون بإلقاء صخرة عظيمة عليها لتُقتل بها. لكن الله برحمته قبض روحها قبل أن تصل الصخرة إلى جسدها، فلم تشعر بالألم، وكان ذلك لطفًا وتكريماً لها. كلما اشتد البلاء، زاد عون الله؛ فقد أراها بيتها في الجنة، فهان عليها العذاب، كما يخفف الله عن الشهداء.

المرأة مع الزوج الكافر

خالفت آسيا فرعون في كفره، ولم يضرها ذلك.

قال قتادة: "ما ضرَّ امرأة كفر زوجها حين أطاعت ربها"

فالله لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

قد يعيش الإنسان في أشد البيئات فساداً، ومع ذلك يبلغ أعلى المراتب بصدق الإيمان والصبر.

الله ينصر المؤمنين، ويجعل البلاء زيادةً في إيمانهم، ويأتيهم بالفرج في أشد اللحظات. ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لما ثبتت آسيا بنت مزاحم، طلبت من الله بيتًا في الجنة. لقد كان ثباتها نتيجة معرفتها بالحق ورفضها للباطل، فمن ذاق الباطل وعرف حقيقته، كان أشد تمسكًا بالحق وأبعد عن الرجوع إليه، كما كان حال الصحابة رضي الله عنهم. وكلما استحضر الإنسان الآخرة، ازداد ثباتًا واستقامة. قال أنس بن النضر في غزوة أحد: "إني لأجد ريح الجنة من وراء أحد"، واقترح صفوف المشركين بشجاعة مستحضرًا الآخرة.

قراءة القرآن وتدبره وذكر الآخرة يرسخان الصبر والاحتساب، ويجعلان القلب عارفًا للحق، فتذوب ملذات الدنيا الزائلة أمام يقين النعيم الأبدي كما تجلّى في قلب آسيا، التي رفضت كل مظاهر الظلم والفساد التي كان يمثلها فرعون، كما عبّر إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦] فالاستقامة لا تتحقق إلا بالولاء للحق والبراءة من الباطل، فالإيمان الحقيقي يقتضي الابتعاد عن كل طريق يؤدي إلى الضلال.

لقد نجّى الله آسيا فحافظت على دينها وكرامتها، وأكرمها بالشهادة فلم تشعر بألم العذاب، فكان ثوابها الحقيقي النجاة والفوز عند ربها. وكذلك كانت ماشطة بنت فرعون تعمل في قصره، وقد آمنت بالله سرًا. فلما علم فرعون بإيمانها، أمر بتعذيبها هي وأولادها حرقًا، لترجع عن دينها، لكنها صبرت وثبتت. وأمام عينيها، ألقي أولادها واحدًا تلو الآخر في النار، وهي محتسبة صابرة. حتى جاء دور طفلها الرضيع، فتعلقت به وكادت تضعف من شدة الألم. عندها أيدها الله، فأنطق الرضيع قائلًا: "يا أمّاه، اقترحي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة". فازداد ثباتها، وألقت بنفسها في النار.

تُعَدُّ تضحية آسيا أعظم من تضحية ماشطة بنت فرعون؛ لأن آسيا كانت تعيش في قمة النعيم والسلطة، وتملك المال والخدم وكل أسباب الراحة، ومع ذلك اختارت الإيمان أما الماشطة، فرغم عظيم ثباتها وأجرها الكبير، إلا أنها لم تكن تملك من متاع الدنيا ما يجعل التضحية بنفس الدرجة.

العبرة أن الالتزام الحقيقي لا يكون هروبًا من الدنيا، بل يكون اختيارًا لله، حتى عندما تكون الدنيا بكل مغرياتها متاحة للإنسان، فيتركها طاعةً لله.

رسالة للفتيات:

آسيا بنت مزاحم كانت تتمتع بالثروة والجمال والراحة، ومع كل المغريات التي أحاطت بها، اختارت طريق الله وفضلته على كل شيء، فكانت أعلى منزلة من غيرها ممن التزموا رغم الفقر أو الشدة.

بينما يضطهد فرعون المؤمنين إذا بالإيمان يضطهد بيته، فمن يطفئ نور الله تعالى؟! ذكر الله دعاءها ليدلّ على أن الدعاء الصادق سبب لرفعة الدرجات، ومن أعظم صور العبودية لله تعالى.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
براءتها من طغيان زوجها وأفعاله.
لا يستقيم الإنسان على الهدى إلا إذا تبرأ من طرق الضلال.

(الآية 12)

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا

وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

اختارها الله واصطفها وطهرها وجعلها من أعظم نساء العالمين.

فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"كمل من الرجال كثير، وما كمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

مريم ابنة عمران نموذج للابنة الصالحة في أسرة صالحة

كانت نشأتها في بيت والدها عمران عليه رحمة الله، الذي أرسى قواعد الطاعة والزهد والعبادة في حياتها، فكانت تربيتها متوافقة مع المبادئ الصالحة.

الحفاظ على العفة والطاعة، هو ما يميز المرأة الصالحة عن غيرها، ويجعلها نموذجًا يُحتذى به.

الضغط الاجتماعي والشهوات هي التحديات الكبرى للمرأة:

أي فتاة تواجه في حياتها مساحتين رئيسيتين من الاختبار:

الضغط الاجتماعي: تأثير المجتمع عليها بما يفرضه من سلوكيات أو توقعات، وقد يشكل اختبارًا لقدرتها على الالتزام بالقيم الصحيحة.

فتنة الشهوات: محاولة الانجذاب إلى علاقات محرمة أو مغريات جسدية، سواء بالكلمات أو المظاهر أو الصور، وهذا اختبار لحفظ النفس والطهارة.
فالمراة غالبًا ما تتأثر بسهولة بالكلمات الرقيقة أو الإطراء العاطفي، لذلك كانت آسيا امرأة فرعون مثالًا للصلاية أمام الضغوط، وحافظت مريم على عفتها في كل المواقف.
قد تواجه بعض الفتيات اليوم صعوبة في الالتزام بالحجاب أو الاستقامة بسبب تأثير المجتمع أو المغريات المحرمة.

العفة والطهارة: حماية ورفعة للمرأة
العفة أعلى درجات الحفظ؛ وهي حماية النفس من كل ما يفسدها، وتجنب العلاقات المحرمة، والنظر بشهوة، والعادات السيئة، وكل ما يسيء إلى الشرف.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾

فقد حفظت مريم طهارتها وصانت نفسها عن الحرام، وهذا يظهر أهمية العفة والطهارة في حياة المرأة.
الحفاظ على العفة يمنح المرأة تميزًا ورفعة عند الله، سواء بالحجاب أو بالابتعاد عن العلاقات المحرمة.

مريم بنت عمران نموذج للعبادة والطاعة

كانت مريم تخدم بيت المقدس، وتميزت بالعبادة والعبودية الخالصة، مع الحفاظ على عفتها.
جاءها جبريل عليه السلام على هيئة بشر، ففزعت منه وقالت:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

[مريم: ١٨-٢١]

هذا يوضح حيائها وعفتها وحفاظها على طهارتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾

أرسل الله جبريل فنخ في جيب درع مريم العذراء، فوصلت النفخة الرحم، فحملت بعتسى عليه السلام.

﴿مِنْ رُّوحِنَا﴾

نسبة تشريف فقط.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾

رضيت بأقدار الله، وصدقت بشرائع الله وكتبه المنزلة.

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

أي كانت مداومة على العبادة والطاعة، خاضعة لأوامر الله.

التعبير بصيغة المذكر ﴿الْقَانِتِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنها قد بلغت في الطاعة درجة عالية، حتى عُدَّت في زمرة أكمل العابدين، وغالبًا ما يُعَبَّر عنهم بصيغة المذكر للتغليب، وشدة الطاعة.

فائدة من ذكر ﴿أَبْنَتْ عَمْرًا﴾ العفة والطهارة تجعل المرأة سببًا لرفع شأن أسرتها وذكرها والديها بالخير.

والبركة والأثر الصالح يمتد من المرأة إلى الأسرة كلها.

المرأة الصالحة والملتزمة تجعل من بيتها ومن أسرتها مثالًا يُحتذى به، بينما انعدام العفة يشوه السمعة ويضع الأسرة في مواقف محرجة.

الحفاظ على العفة والطاعة والاجتهاد في العبادة يرفع المرأة عند الله ويجعلها سببًا للخير لعائلتها. ينبغي للرجال أن يروا في هذه النماذج النسائية حافزًا لهم للجد والاجتهاد والعمل الصالح.

نسأل الله أن يعلمنا وإياكم ويثبتنا على الصراط المستقيم، ويجعلنا من الفائزين بالجنة، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته